

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية

اللغة العربية بإيتاي البارود جامعة الأزهر

إعداد وإشراف

أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب

رئيس قسم الأدب والنقد



جامعة الأزهر

مجلة

كلية اللغة العربية

بدمهور

يصدرها أعضاء

هيئة التدريس بالكلية

تحت إشراف

الدكتور عبد الله بن يحيى محم

عميد الكلية

العدد الأول

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

دار الطباعة الحديثة

٣ درع، بركة الأزهر، القاهرة

مشروع إعداد نسخة إلكترونية لمجلة كلية
اللغة العربية بإيتاي البارود - جامعة الأزهر
إعداد وإشراف
أ.د/ يوسف محمد فتحي عبد الوهاب
رئيس قسم الأدب والنقد



مجلة كلية اللغة العربية بدمهور

يصدرها أعضاء
هيئة التدريس بالكلية
تحت إشراف

الدكتور عبد الله بن يحيى

عميد الكلية

العدد الأول

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

دار الطباعة والمطبوعات
٣٠ درب الأتراك بالأزهر - القاهرة

بسم الرحمن الرحيم

تصدير

(ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وإمام
المتقين . سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . . وبعد :

فقد شاء الله أن تكون للإسلام منارة ، وللعربية دارة في مدينة
دمهور ، فافتتحت بها كلية اللغة العربية . معهدا للعلم ، ومركزا للدرس ،
وحصنا للغة ، ومصنعا لتخريج العلماء والدعاة .

وتطلعت هذه الكلية الناشئة إلى ما يتطلع إليه كل فتي ناضج ، وكل
واع ثاقب ، ورغبت أن يكون لها صوت ناطق بالحق ، ولسان شاهد
بالصدق ، فكان التفكير الفينة بعد الفينة ، والمرة تلو المرة في إصدار
مجلة أو حولية تضم بعض نتاج أبناء هذا المعهد الجديد ، وتعطي الفرصة
لأقلام هذا الجيل المثرث لتشارك الكلية المكتوبة أختها المنطوقة ، في
خدمة الإسلام والعربية ، وتحول هذا التفكير إلى أمل ، وحالت ظروف
الإنشاء والإعداد دون تحقيقه بالسرعة المرجوة ، لكن السعي إليه لم
يتوقف ، والإعداد لبلوغه لم يهدأ ، حتى كانت وثبة فتيمة وضعت الجميع على
أولى الدرجات ، ودفعتهم إلى مراداة الصعود ، فكان هذا العدد الأول من
صوت العربية بشمال مصر من مجلة كلية اللغة العربية بدمهور ، يتقدم إلى
قارئه في قراضع ، ويقترّب منه في هدوء وائتناس ، يريد صداقته ويطلب
فصحته ، ويرجو معونته ، ويعاهده أن يكون ما بعده خيرا مما قبله ، وأن
يحمل رسالة العلم ، تفتح الطريق ، وتنير السبيل ، وتوضح المنهج ، وترفع

الأعلام والصوى لمن يريد السعادة به . واللذة الكبرى باكتسابه .

وبما لا يشك فيه أن أحدا لن يلوم على صغر الحجم أو قلة المادة ،
أو عدم التنوع ، فإنها الباكورة تخرجها أيدى هي أيضا قليلة ، وتبرزها جماعة
ما تزال فى دور البناء والتكوين ، وتظهرها مدرسة علمية هي على أول
الطريق ، ولك - أيها القارىء - علينا العهد والميثاق أن نعوض ما فقدت ،
وأن نحقق ما أردت بمعونة الله ، وحسن توفيقه فيما يستقبل من أعداد هذه
المجلة الجديدة ، فادع الله معنا (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا
من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)

المشرف

د . عبد الله ربيع محمود

أَبُو عَبْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَّامٍ

ثقافته العلمية وأثاره

بقلم

دكتور

عبد الله بن سعيد المحمود

أبو عبيد ، هو الإمام القاسم بن سلام ، الفقيه ، الثغوى . المحدث ،
إمام عصره فى كل فن وعلم كما يقول صاحب معجم الأدباء ، (١)

وقد كناه بعضهم بأبى عبيد الله (٢) و ذكر صاحب طبقات المفسرين
أن (سلاما) الذى هو أمم أبیه ينطق بتشديد اللام (٣) .

ويوضح صاحب الفهرست شيئا من نسبه فيقول (أبو عبيد القاسم
ابن سلام ، وقيل : ابن سلام بن زيد (٤) ..

ولم أر فيما أطلعت عليه فيما يتصل بنسبه أكثر من هذا ، غير أنهم
ذكروا أن أباه كان عبدا روميا لرجل من أهل هراة ، وأنه كان يتولى
الأزد ..

ومن هنا جاءت نسبة : التركى ، والأزدى ، وربما الهروى التى ترد فى
ترجمته .

ولأبى عبيد نسب أخرى مثل . الخزاعى ، والخراسانى والبغدادى ،
والكوفى ..

وعلمتها واضحة كما نرى لـكن الذى نعجب له أن بعضهم قد نسبته إلى
(جمح) فوصفه بالجمحى ، وظن أنه كان أخا لمحمد بن سلام الجمحى صاحب
طبقات فحول الشعراء المتوفى سنة ٢٣١ هـ

(١) معجم الأدباء ١٦ / ٢٥٤

(٢) انظر . هامش ص ٥ تذكرة الحفاظ / ٢

(٣) طبقات المفسرين / ١٩٩ (ب)

(٤) الفهرست / ١١٢

وهذا خطأ فاحش ، وقد تنبه إليه من قديم أبو الطيب اللغوى (١) وحذر منه ، لكن ذلك لم يمنع كثيرين من الوقوع في هذا الخطأ ، وقد رأيت على صدر النسخة التي تحمل رقم ١٢١ لغة بدار المكتب المصرية من كتاب الغريب المصنف ، وفي الفهارس القديمة بالدار وفي كتاب كشف الظنون (٢) وفي مواضع أخرى .

وهكذا لا يوضح لنا التاريخ شيئاً كثيراً عن أسرة هذا العالم ونسبه . وكل ما يعرف عن والده أنه كان يعمل حمالاً ، وأنه نال حرية ، وصار مولى للأزد ، وأنه كان رجلاً محباً للعلم والعلماء ، وقد ظهر أثر ذلك في توجيهه ولده القاسم إلى الدرس والتعلم ؛ وقد حفظ لنا المؤرخون كلمته الذكية التي وجهها إلى شيخ المكتب وقد ذهب بولده إليه ، وأوصاه به قائلاً :

« على القاسم فإنها كيسة (٣) »

وفي هذه الكلمة على الرغم من اللبنة الواضحة فيها ما يدل على الفراسة والرؤية الواضحة للمستقبل ، فقد أثبتت الأيام صدق هذا الوالد ، وحسن تقويمه لقد رات ابنه ومواهبه .

لقد ولد أبو عبيد في مدينة « هراه » ، تلك المدينة القديمة التي بناها الإسكندر المقدوني على نهر أريوس والتي فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر رضي الله عنه ، والتي خربها التتار بعد ذلك سنة ٦١٨ هـ .

(١) مراتب النحويين ص ٢

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٠٠ وقد ذكر له نسبة أخرى هي :

الحريزى وذلك ص ١٥٨ ج ٢ ولم أر هذه النسبة عند غيره .

(٣) تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢

وهي مدينة لها في التاريخ العلمي ذكر واضح وإليها نسب كثير ممن ساهموا في بناء الصرح الخالد لعلوم الإسلام والعربية (١) .

وقد ذكر الحافظ بن الجوزي أن مولد أبي عبيد كان في سنة خمسين ومائة ، وقال أبو بكر الزبيدي في كتاب التقریظ أن مولده سنة أربع وخمسين ومائة (٢) .

ولأنكاد نعرف شيئاً ذا بال عن فترة النشأة الأولى لأبي عبيد ، وتلك عادة التاريخ ، لا يعنى هؤلاء العلماء إلا بعد ظهورهم ونسبهم فتظل طفولتهم ومراحل تكوینهم مغمورة غامضة إلى حد كبير

إن كل ما نعرفه عن هذه الفترة من حياة أبي عبيد أنه أرسل مع ابن سيده إلى المكتب على عادة القوم في تربية أبنائهم في هذا العصر وأن أباه - كما سبق - قد لمح فيه معالم الذكاء فأوصى به الشيخ وهو يأمل أن يكون ابنه في يوم ما من حملة العلم وأرباب الفضل .

وفي هذا المكتب تلقى أبو عبيد ما يتلقاه أمثاله من حفظ القرآن الكريم ، ومبادئ العلوم الإسلامية والعربية .

وكان من الممكن أن يقنع مثل هذا الطالب الفقير بهذا القدر ، لكننا نراه لا يكتفى بما تلقاه في الكتاب ، وإنما يخرج إلى لقاء العلماء والأخذ عن المحدثين والفقهاء ، وفصحاء الأعراب وغيرهم غير قانع بما في بديعة هراه بل حاملاً رحله إلى كل بلد ترتفع فيه منارات العلم ، ورايات العلماء .

(١) انظر عنها : مسالك النمالك ٣٩٣ وما بعدها .

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٦/٣

وهكذا عرفت «البصرة»، و «السكوفة»، وبغداد، والشام^(١)، ومصر وغيرها وشهدت رحلاته، طالبا للعلم لا يمل ولا يكل، ولا يعترف بحدود يقف عندها أو يظن أنها تمنع من مواصلة الطالب والاستمرار في الدرس.

وليس أدل على هذا من ذهابه إلى البصرة وهو في أخريات حياته لسمع من شيخها (حماد بن زيد) فيجده قد فارق الحياة فيصيبه الحزن والغم لذلك، حتى ليشكو هذا إلى عبد الرحمن بن مهدي فيعزيه عبد الرحمن عن هذا بقوله: (مهما سبقت به فلا تسبقن بتقوى الله عز وجل^(٢)).

ومن أجل هذا كانت رحلته أيضاً إلى مصر سنة ٢١٣ هـ وقد صحب فيها يحيى بن معين، وفيها كتب وحكي عنه... وفيها أرخه خير واحد كما يروي صاحب تهذيب التهذيب^(٣).

وفي مثل هذا السن أيضاً شهدته مكة حاجاً ومجاوراً حتى كتب الله له أن يشرف جسده بالبقاء في ترابها الطاهر إلى يوم القيامة، فقد دفن أبو عبيد بمكة سنة ٢٢٤ هـ في أرجح الأقوال.

وقد تهيأ له بتلك البيئات التي عاش فيها أو رحل إليها أن يلتقي

(١) يقول الداودي: وقال ابن عساكر: قدم دمشق طالب علم قال ابن يونس سكن بغداد، وقدم مصر مع يحيى بن معين سنة ثلاث عشر ومائتين وكتب بمصر انظر طبقات المفسرين الورقة ٢٠٠ (أ) «خ»، دار الكتب المصرية.

(٢) تاريخ بغداد ١٢ ص ٤٠٨

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ٨ ص ٣١٦

بأعظم علماء عصره في كل فن وعلم ، وأن يأخذ عن كثيرين عرفهم
العالم الإسلامي أئمة للفكر فيه وقادة للعلوم والفنون .

فقد قرأ القرآن الكريم على الكسائي ، وإسماعيل بن جعفر ، وشجاع
ابن أبي نصر وغيرهم .

ويذكر ابن الجزري هذا فيقول :

« أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن (س م ب ج ك) علي بن حمزة الكسائي
و(ك) شجاع بن أبي نصر ، وسليمان بن حماد ، و(ج) إسماعيل بن جعفر
و(ك) حجاج بن محمد و(ج) هشام بن عمار ، وعبد الأعلى بن مسهر (ك)
سليم بن عيسى و(ك) يحيى بن آدم (١) .

أما الحديث الشريف فقد سمعه ورواه عن كثير من أئمة العلم به
والسند فيه .

يقول السبكي عنه :

« وسمع الحديث من إسماعيل بن عياش ، وإسماعيل بن جعفر ، وهشيم
ابن بشير ، وشريك بن عبد الله . وهو أكبر شيوخه وعبد الله بن المبارك
وأبي بكر بن عياش ، وجرير بن عبد الحميد ، وسفيان بن عيينة وخلائق
آخرون موقفاً هشام بن عمار (٢) .

وقد ذكر البغدادى أنه سمع أيضاً من إسماعيل بن علية ويزيد بن

(١) غاية النهاية ج ٢ ص ١٨ وهذه الرموز تعنى كتب القراءات المشهورة
عند ابن الجزري وذلك على النحو التالى : س : كتاب المستنير ، م ب :
المهجع ، ج : جامع البيان للداق ، ك : كتاب الكامل للهفلى . . أنظر الجزء
الأول ص ٣

(٢) طبقات الشافعية ج ١ ص ٥٧٠ الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية .

ويزيد بن هارون ، ويحيى بن سعيد القطان ، وحجاج بن محمد ، وأبي معاوية
الضري ، وصفوان بن عيسى ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وحماد بن مسعدة
ومروان ابن معاوية ، وعمر بن يونس ، وإسحاق الأزرق وغيرهم (١) .

أما الفقه فقد ذكر صاحب طبقات الشافعية أنه تفقه على الشافعي
وتناظر معه في القرء هل هو حيض أو طهر إلى أن رجع كل منهما إلى
ما قاله الآخر (٢) .

ويقول صاحب طبقات الحنابلة عن أبي عبيد :

« وكان يقصد إمامنا أحمد ويحكي عنه أشياء » (٣) .

وما يلاحظ أيضاً أن بعضهم يذكر أنه أخذ عن أئمة الحنفية وأنه كان
من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة على حين أننا لا نعدم أيضاً
من يوصىء إلى تفقه أبي عبيد بأقوال الإمام مالك بن أنس وآرائه .

وفي هذا كله ما يدل على أن أبا عبيد كان يلتقط الحكمة أينما وجدها ،
ويطلب الفقه في الدين ، والعلم به في كل مظانه ، وسترى أن هذا المنهج قد
ارتقى به إلى درجة الإمامة والتفرد بالرأي .

ونأتي إلى اللغة فنرى أنفسنا أمام صالب واسع الأفق ، رحب الصدر ،
بعيد النظر ، مجردا عن الهوى ، ومن ثم فإنه يأخذ العلم باللغة وروايتها من
كل مدرسة ، ومن كل فم تمكنت أذنه من سماع ما يخرج منه ، دون نظر إلى

(١) تاريخ بغداد - ١٢ ص ٤٠٣

(٢) طبقات الشافعية - ١ ص ٢٧٠ وما بعدها

(٣) طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى - ١ ص ٢٥٩

كونه كوفيا أو بصريا أو بغداديا أو من غير هؤلاء فالحقيقة هي المطلوبة،
والرواية الصحيحة هي المطلب، والتلمذة الصادقة هي المنهج، فما المانع إذن
أن يأخذ هذا الطالب التقى ما يريده من اللغة وعلومها عن أشهر علماء عصره
بها، وأكثرهم معرفة ورواية لها.

لقد أخذ أبو عبيد عن الأضمعي، وأبي زيد، وأبي عبيدة وغيرهم من
أئمة البصرة، كما أخذ عن الكسائي، وأبي عمرو الشيباني، والفراء، وغيرهم
من أئمة السكوفة.

وقد روى أيضاً عن كثير من الأعراب الفصحاء مثل العديس الكفاني،
وأبي الجراح العقيلي، وأبي زياد الكلابي وغيرهم.

ومع أننا سنفصل الحديث عن ذلك في المستقبل القريب إلا أننا نحب
أن نؤكد مرة أخرى على أن أبا عبيد لا يكاد يترك عالماً باللغة، أو راوياً
لها إلا ويأخذ عنه دون ما توقف أو حرج ومن ثم فإنه يمكن القول بأنه
كان في ذلك تلميذ العصر كله وتلميذ جميع أئمة ورواته.

وإذا كانت القراءات، والفقه، والحديث، واللغة تمثل أهم العلوم
والثقافات التي شاعت في هذا العصر، فإن هناك علوماً أخرى كثيرة كانت
تدور في فلك هذه العلوم وتخدمها وتتصل بها من قريب أو بعيد.

وكان شأن عامة المتعلمين أن يأخذوا بأطراف من تلك العلوم فإن كين
التعمق فيها لأهل التفرد بها والتخصص فيها؛

ولم يكن أبو عبيد من هؤلاء العامة فقد أبت نفسه إلا أن يطلب كثيراً
من تلك العلوم طلب من ينبغي التخصص ويريد التعمق.

ومن ثم لم يكن عجباً بعد ذلك أن يطلب أبو عبيد علم التاريخ والأخبار،
وأن يتطلع إلى معرفته علم الأنساب وغيره.

وكان له من شيوخه السابقين وغيرهم مثل ابن الكلبي خير معين على تحقيق هدفه وتحصيل ما يرجوه من تلك المعارف والثقافات ، ولا تكاد السنون تتقدم بهذا الفتي الرومي الخراساني حتى نراه متربعا على عرش العلوم الإسلامية والعربية ، لا يكاد ينازعه في منزلته منازع .

فهو في علوم القرآن وقراءاته الإمام الكبير الحافظ العلامة أحد الأعلام المجتهدين وصاحب التصانيف في القراءات .

روى عنه القراءة (مب) أحمد بن إبراهيم وراق خلف و(س ك) أحمد ابن يوسف التغلبي و(ج ك) علي بن عبد العزيز البغوي ، والحسن بن محمد ابن زياد القرشي ، ومحمد بن أحمد بن عمر الباني ، وأحمد بن الحسن بن عبد الله المقرئ كذا ذكره أبو علي الرهاوي ، ونصر بن داود و(ك) ثابت بن عمرو بن أبي ثابت .

وله إختيار في القراءة وافق فيه العربية والأثر (١) .

وهو أول من وضع كتابا في علم القراءات ، كما يذكر المؤرخون لهذا العلم (٢) .

وكذلك تحقق لأبي عبيد القدر الكبير في الإحاطة بعلم معاني القرآن وتفسيره ، وعلم فضائله ، وناسخه ومنسوخه وغير ذلك كما سيظهر عند ذكر مؤلفاته .

وفي الحديث وعارمه كان أبو عبيد الثقة المأمون ، صاحب الأسانيد ،

(١) غاية النهاية > ٢ ص ١٨

(٢) أنظار : كشف الظنون > ٢ ص ٢٩٤

وشارح غريب الحديث ، والحافظ الذي ينفرد أحياناً برواية ما ليس عند غيره .

يقول عبد الغنى بن سعيد الحافظ : فى كتاب الطهارة لأبى عبيد القاسم ابن سلام حديثان ما حدث بهما غير أبى عبيد ولا عن أبى عبيد غير محمد بن يحيى المروزي أحدهما حديث شعبة عن عمرو بن أبى وهب والآخر حديث عبد الله بن عمر عن سعيد المقبرى حدث به يحيى القطان عن عبيد الله وحدث به الناس عن يحيى القطان عن ابن عجلان .

وقد ذكر البغدادى هذين الحديثين بسندهما وأحدهما: عن عائشة رضى الله عنها قالت كان النبى ﷺ إذا توضأ يخلل لحيته. والآخر : رأت عائشة عبد الرحمن توضأ فقالت : يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء فأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ويل للأعقاب من النار (١) .

ويروى أيضاً أن حمدان بن سهل يقول : سألت يحيى بن معين عن الكتابة عن أبى عبيد والسماع منه فتبسّم وقال : مثلى يسأل عن أبى عبيد ، أبو عبيد يسأل عن الناس لقد كنت عند الأصمعى يوماً إذ أقبل أبو عبيد فشق إليه بصره حتى اقترب منه فقال : أترون هذا المقبل ؛ قالوا : نعم قال : لن تضيع الدنيا أو لن تضيع الناس ما حي هذا المقبل .

ثم يذكر أن أبا داود سليمان بن الأشعث سئل عن القاسم بن سلام فقال : ثقة مأمون (٢) .

وفى هذا المجال يروى عنه كثيرون بعضهم كان من شيوخه على حد

(١) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٣٤ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ج ١٢ ص ١٤٤ وما بعدها

قول الحافظ ابن حجر العسقلاني : وروى عنه سعيد بن أبي مريم المصري وهو من شيوخه (١) .

ويواصل ابن حجر الحديث عن منزلة أبي عبيد في هذا فيقول : ذكره البخاري في جزء القراءة خلف الإمام ، وحكى عنه في كتاب الأدب وفي كتاب أفعال العباد ، وذكره أبو داود في تفسير أسنان الإبل من كتاب الزكاة ، ورواه عبد الله بن طاهر لما بلغه موته قلت : قد وجدت له رواية في الصحيح ، والموضع الذي حكاه عنه في الأدب قوله عقب قول ابن الحنفية هل جزاء الإحسان إلا الإحسان قال هي مسجلة للبر والفاجر قال أبو عبيد مسجلة : مرسله ، وذكره الترمذي في الجامع في غير موضع ، منها في القراءات قال : وقرأ أبو عبيد والعين بالعين يعني بضم النون ، ووقع في الصحيح في أحاديث الأنبياء عليهم السلام قال أبو عبيد : كذبه كن فكان (٢) .

فهذا رأيت من كلام أبي عبيد معمر بن المثنى أيضا ، وفي الصحيح أيضا في الزكاة : وقال أبو عبيد كل بستان عليه حائط فهو حديقة ، وفي كتاب الرقاق من الصحيح قال الفزاري قال أبو جعفر يعني وراق البخاري سألت البخاري فقال سمعت أحمد بن عاصم يقول : سمعت أبا عبيد يقول قال الأصمعي وأبو عمرو وغيرهما : جفرت قلوب الرجال : الجفرت الأصل من كل شيء والوكت أثر الشيء اليسير منه والمجمل أثر العمل في السكف إذا غلظ (٣) .

وقال ابن حبان في الثقات : كان أحمد أئمة الدنيا صاحب حديث ، وفقه ، ودين ، وورع ، ومعرفة بالأدب وأيام الناس جمع ، وصنف ،

(١) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣١٥

(٢) انظر : شرح صحيح البخاري للشيخ رزوق ٦ / ٤٢٢

(٣) انظر فتح الباري ١ / ٣٣٣

واختار ، وذب عن الحديث ، ونصره وقمع من خالفه (١) .

وربما كفاه في هذه الناحية ما ذكر من قراءة الأئمة عليه وسماعهم منه وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل وغيره .

وفي الفقه تحقق لأبي عبيد مقام المجتهدين وقد سبق أن ذكرنا أنه أخذ من كل أصحاب المذاهب المشهورة تقريرا أو من تلامذتهم ومن ثم فقد نسبته كل أصحاب مذهب إلى منهجهم فهو شافعي عند الشافعية ، حنفي عند أصحاب أبي حنيفة (٢) ، حنبلي عند الحنابلة ما لحى في عرف المالكية .

والحق أن الرجل كان قد بلغ مرتبة الاجتهاد والاستقلال في استنباط الأحكام ، واستخراج فروع الشريعة ، مما حصله من مصادر ما التي كان له القدم الثابت فيها جميعا .

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره السبكي من مناظرته للشافعي ورجوع كل منهما إلى قول صاحبه ، فهو يذكّر أنهما تناظرا في القراء فكان الشافعي يقول إنه الخيضر ، وأبو عبيد يقول : إنه الطاهر فلم يزل كل منهما يقرر قوله حتى تفرقا ، وقد أتمحل كل واحد منهما مذهب صاحبه وتأثر بما أورده من الحجج والشواهد .

ويعلق صاحب الطبقات على هذه المناظرة فيقول :

« قلت وإن صحت هذه الحكاية ففيها دلالة على عظمة أبي عبيد فلم يبلغنا عن أحد أنه فاضر الشافعي ثم رجع الشافعي إليه ففيها دلائل على

(١) تهذيب التهذيب ٣١٧ وما بعدها

(٢) انظر : فهارس البخاري ص (١) . وانظر مقدمة تحقيق : فصل

المقال ص هـ

رفعة مقدارة بمناظرته مع الشافعي ثم رجوع الشافعي إلى مذهبه (١) .

وفى هذه المناظرة وغيرها ما يدل حقا على أن أبا عبيد كان مجتهدا وأستاذا كما وصفه كثير من العلماء والأئمة .

ونعمت الأستاذية عندما تمنح من أمثال أحمد بن حنبل الذي يقول عن أبي عبيد إنه أستاذ (٢) ، ويحيل السائلين إليه داعيا الله أن يجزيه الخير عن العلم وأهله .

وقد ألمح إلى هذه الإمامة والريادة في الشريعة وعلومها كثيرون (٣) .

أجل لقد حصل أبو عبيد من ثقافات عصره وعلومه كل ما يليق بمن يهيم نفسه لخدمة العربية والإسلام .

وقد كان علم اللغة كما سنرى على رأس تلك العلوم التي حصلها وتعمق في دراستها حتى بلغ فيها مرتبة الإمامة والريادة .

وقد جرت العادة عند التأريخ للعلماء أن يوصف الواحد منهم بالتقدم في علم أو علمين أو ثلاثة لكن هذه القاعدة أو الفكرة لا تسكاد فتطبق على

(١) طبقات الشافعية - ص ٢٧٣

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ / ٦ وسياتي

(٣) يقول الشيخ الكوثري عن البخاري : ولم يكن البخاري يكتفى بالرواية المجردة بل كان يجول في ميدان الاجتهاد مزاحما أئمة الفقه المعروفين وفي أغلب ما ينفرد به من المسائل عن الأئمة الأربعة تجده موافقا لأراء الإمام المجتهد أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي الأصل ثم البغدادي من أصحاب الإمام محمد بن الحسن الشيباني هـ فهارس البخاري ص ١

أن عبيد فما من علم يذكر إلا ولأبي عبيد فيه قدم عال أو إمامة وريادة ،
أو سبق في التدوين والتأليف .

يشهد بذلك ويدل عليه أمور منها شهادات العلماء والمؤرخين .

وقد سبق ذكر بعضها ويهملنا أن نذكر هنا بعضها آخر منها .

يقول إبراهيم الخريزي : أدركت ثلاثة لن يرى مثلهم أبدا يعجز النساء
أن يلدن مثلهم : رأيت أبا عبيد القاسم بن سلام ما مثاته إلا بجبل نفح
فيه روح (١) .

(وقال أحمد بن حنبل : أبو عبيد أستاذ وهو يزدداد كل يوم خيرا)
ويعلم الذهبي على هذا فيقول :

(قلت : من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانه من الحفظ والعلم ، وكان
حافظا للحديث وعلمه ، ومعرفة متوسطة ، عارفا بالفقه ، والاختلاف ،
رأسا في اللغة إماما في القراءات له فيها مصنف (٢) .

ويقول عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي النحوي : أبو عبيد
من علماء بغداد المحدثين النحويين على مذهب الكوفيين ، ورواة اللغة والغريب
عن البصريين والكوفيين ، والعلماء بالقراءات ، ومن جمع صنوفا من العلم
وصنف الكتب في كل فن من العلوم والآداب فكثر وشهر (٣) .

ويقول الأزهري عنه : وكان دينيا فاضلا ، عالما أدبيا فقيها ، صاحب
سنة ، معنيا بعلم القرآن وسنن رسول الله ﷺ والبحث عن تفسير الغريب
والمعنى المشكل (٤) .

(١) تاريخ بغداد ١٢ ص ٤١٢

(٢) تذكرة الحفاظ ٢ ص ٦

(٣) طبقات المفسرين ٢٠٠ (ب)

(٤) تهذيب اللغة ٤٥/١

« وقال ابن ناصر الدين هو ثقة ، إمام ، فقيه مجتهد ، أحد الأعلام وقد كان إماماً في القراءات ، حافظاً للحديث وعلمه الدقيقات ، عارفاً بالفقه والتعريفات رأساً في اللغة ، ذا مصنفات » (١) .

وعن محمد بن أبي بشر قال : أتيت أحمد بن حنبل في مسألة فقال لي : أنت أبا عبيد فإن له بياناً لا تسمعه من غيره ، قال . فأتيته فشفتني بجوابه ، (٢) .

وقال أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النفاش : أبو عبيد القاسم بن سلام من أبناء أهل خراسان وكان صاحب نحو وعربية ، طلب الحديث والفقهاء وولى قضاء طرسوس . . . وقدم بغداد فسمع الناس منه علماً كثيراً (٣) .

و « سئل أبو قدامة عن الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق وأبي عبيد فقال : أما أفهمهم فالشافعي إلا أنه قليل الحديث ، وأما أوزعمهم فأحمد ابن حنبل ، وأما أحفظهم فإسحاق ، وأما أعلمهم بلغات العرب فأبو عبيد » .

« وقال إسحاق بن إبراهيم الحنظلي : أبو عبيد أوسعنا علماً ، وأكثرنا أدباً ، وأجمعنا جمعاً ، إنا نحتاج إلى أبي عبيد ، وأبو عبيد لا يحتاج إلينا ، وقال إسحاق : الحق يحببه الله عز وجل أبو عبيد القاسم بن سلام أفقه مني وأعلم مني وإن الله لا يستحي من الحق أبو عبيد أعلم مني ومن ابن حنبل ، والشافعي ، وقال ثعلب : لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجباً » (٤) .

(١) شذرات الذهب ج ٢ ص ٥٤

(٢) غاية النهاية ١٨/٢

(٣) إنباه الرواة ج ٣ ص ٢٠

(٤) المرجع السابق ج ٣ ص ١٨ وما بعدها .

وإذا كانت كل هذه الشهادات والأقوال تبين سعة ثقافة شيخنا وتوضح اتساع المدى الذي حققه في مختلف العلوم والفنون فإننا لا نعدم بعض الأقوال القليلة التي تحاول الغض من قيمة هذه العقلية والخط من قدرها الذي أكبره العارفون وعظمه الدارسون .

ويقتضى الإنصاف أن تشير إليها حتى لا تخرج عن الموضوعية التي كان يؤمن بها أبو عبيد كل الإيمان .

فقد ذكر وأن إبراهيم الحربي قال عنه إنه كان يحسن كل شيء إلا الحديث فإنه صناعة أحمد ويحيى (١) .

ولست أرى في هذا النص إذا صح ما يغض من قيمة الذي يحسن كل شيء فما عليه إذن بأس أن يأتي في الدرجة الثانية بعد هذين العلمين الكبيرين اللذين تخصصاً في علم الحديث وروايته ، على أنه قد شار كهما في هذا وتفوق عليهما في علم غريب الحديث فقد وردت روايات كثيرة بأنهما قد قرأ عليه هذا العلم الأخير وأخذه عنه مثنين عليه ، داعين له (٢) .

ومع هذا فقد ذكر كثيرون ما كان لأبي عبيد من منزلة كبرى في علم الحديث وقد مر بعضها .

وقد روى البخاري بسنده عن الصاغاني قال : سمعت أبا عبيد يقول : ما كان علي من حفظ خمسين حديثاً مثونة (٣) .

أما مارووه عن ابن السكيت من تنقيصه لأبي عبيد فقد وضع لنا

(١) تهذيب التهذيب - ٨ - ص ٣١٦

(٢) أنظر : إنباه الرواة ١٦/٣

(٣) طبقات الزبيدي : ص ٢١٨

أبو عبيد نفسه السبب في هذا حيث تقول الرواية أن أبا عمرو ابن الطوس قال : قال لي أبي : غدوت إلى أبي عبيد ذات يوم فاستقبلني يعقوب بن السكيت فقال لي : إلى أين ؟ قلت إلى أبي عبيد فقال : أفت أعلم منه قال : فمضيت إلى أبي عبيد فحدثته بالقصة فقال لي : الرجل غضبان قال : قلت من أي شيء ؟ فقال : جاءني منذ أيام فقال لي : اقرأ على غريب المصنف فقلت : لا ولكي تجيء مع العامة فغضب ، (١) .

ويمكن أن يحمل على هذا اللون من الغضب والحسد ما ذكره ابن اسحق ابن إبراهيم الموصلی من أنه كان يشهر بأخطاء أبي عبيد في الغريب المصنف كما سيأتي :

على أن أخطاء العلماء أمر مقرر عند أهل الوعي والفكر ، وما قال أحد بأن ذلك ينقص من قدرهم ، أو يحط من قيمتهم ، وقد كان رد أبي عبيد على من أخبره بنقص الموصلی جليلاً ، خليقاً بأمثلة من أهل الدين والعلم (٢) .

أما كلام أبي الطيب اللغوي ومن اتبعه وما ذهبوا إليه من أن أبا عبيد كان قليل الرواية ، تقطعه عن اللغة علوم أفتن فيها وأنه كان ناقص العلم بالإعراب ، وغير ذلك مما تلوح فيه رائحة الحسد البصري والتعصب على هذا العالم السكوفي ، فإننا لم نر مع محاولة البحث والتقصي أحداً آخر قال به أو ذهب إليه ، بل كان ما رأيناه على عكس هذا كما مر ذكره ، وقد قال

(١) إنباه الرواه ح ٣ ص ١٧ وأنظر تاريخ بغداد ح ١٢ ص ٤٠٨

(٢) وقد ذكر هذه القصة غير واحد وانظر : طبقات الزبيدي ص ٢٢١ ، وإنباه الرواة ح ٣ ص ١٩ وما بعدها .

أبو الطيب نفسه عن أبي عبيد مانه : « وكان مع هذا ثقة ورعا
لا بأس به » (١) .

ولنا — إن شاء الله — وقفة آنية للفصل في تلك القضية .

* * *

وهكذا يتبين لنا من أقوال هؤلاء الأعلام أن أبا عبيد قد تفوق
في أكثر ألوان العلم والثقافة التي عرفها عصره على حد قول النورى عنه :
« كان إماما بارعا في علوم كثيرة منها : التفسير ، والقراءات ، والحديث ،
والفقه ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ » (٢) .

مؤلفاته وآثاره

أما الأمر الثاني مما يكشف عن علمه وثقافته فإنه يظهر فيما قدمه هذا
العالم المجتهد من مؤلفات وآثار علمية ذات تنوع عجيب .

وبمنا قبل أن نذكر تلك المؤلفات والآثار أن نشير إلى ما شهد به العلماء
لأبي عبيد من حسن التأليف وروعة التصنيف وكثرة .

فقد ذكر أبو الطيب أنه مصنف حسن التأليف (٣) ، ويقول المرزباني :
« ومن جمع صنوفا من العلم وصنف المكتب في كل فن من العلوم والأدب
فأكثر وشهر أبو عبيد القاسم بن سلام » ... وروى الناس من كتبه المصنفة
بضعة وعشرين كتابا في القرآن ، والفقه ، وغريب المصنف ، والأمثال ،

(١) مراقب النحويين ص ٩٣

(٢) تهذيب الأسماء واللغات : القسم الأول ج ٢ ص ٢٠٧

(٣) مراقب النحويين ص ٩٣

ومعاني الشعر ، وله كتب كثيرة لم ترو في أصناف الفقه كله ، وكان إذا ألف كتابا أهده إلى عبد الله بن طاهر ، فيحمل إليه مالا جزيلًا استحسنه ، لذلك ، وكتبه مستحسنة مطبوعة في كل بلد ، والرواة عنه مشهورون ثقات ذوو ذكر ونيل (١) .

ويقول الجاحظ في كتاب المعلمين عن أبي عبيد : كان مؤدياً لم يكتب الناس أصح من كتبه ولا أكثر فائدة (٢) .

وحسبك شهادة الجاحظ لهذا العالم الفند ، لنقف بعض الوقت مع ما وصل إلينا عبر التاريخ من هذه المصنفات الحسنة أو من أسماؤها حتى يأذن الله لترات هذا الإمام المجتهد برؤية النور لينتفع الناس في عصرنا به كما أنتفع به السابقون الذين عرفوا قيمته وقدره .

أولاً : علوم القرآن :

ذكر المؤرخون لأبي عبيد في القرآن مصنفات أهمها :

١ — كتاب القراءات :

ذكره ابن النديم في الفهرست (٣) ضمن مؤلفات أبي عبيد ويعده ابن الجزري أول كتاب في هذا الفن إذ يقول : « فلما كانت المائة الثالثة واتسع الحزق ، وقل الضبط ، وكان علم الكتاب والسنة أوفر ما كان في ذلك العصر ، تصدى بعض الأئمة لضبط ما رواه من القراءات ، فكان

(١) إنباه الرواة ج ٣ ص ١٣

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٥٥

(٣) الفهرست ص ١١٢

أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب : أبو عبيد القاسم بن سلام ،
وجعلهم فيها أحسب خمسة وعشرين قارئاً مع هؤلاء السبعة وتوفي سنة
أربع وعشرين ومائتين ، (١) .

وقد ذكر هذا أيضاً صاحب كشف الظنون (٢) وأشار القسطلاني إلى أن
العلماء تبعوا أبا عبيد في هذا إذ يقول :

« ثم تلاه الجماعة سالكين سنته ، متقلدين منه ، فكثرت التأليف
وانتشرت التصانيف ، واختلفت أغراضهم بحسب الإيجاز والتلويل ،
والتكثير والتقليل ، وكل له مقصد سني ، ومذهب مرضي ، فكان أول
من تابعه أحمد بن جبير الكوفي نزيل أنطاكية ، (٣) .

وقد ذكر ابن خير هذا الكتاب في فهرسته ، وذكر أنه حدثه به شيخه
أبو الحسن سريح بن محمد المقرئ ، قراءة عليه وهو يسمع وذكر سنده حتى
أبي عبيد (٤) .

هذا ولم يشر بروكلمان ، إلى هذا الكتاب (٥) وكذلك لم يذكر فؤاد
سركين شيئاً عن وجوده ، وذلك على الرغم من إشارته إلى دور أبي عبيد
في ضبط القراءات حيث يقول : « ويبدوا أن أول محاولة لتكوين نص
مضبوط معتمد ترجع إلى النجاة في ذلك العصر فسيبوية أعتمد على قراءة
بصرية عادية ، مع أنه كان يعرف كل القراءات المحلية للأماكن الأخرى

(١) النشر ح ١ ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) كشف الظنون ح ٢ ص ٢٩٤

(٣) لطائف الإشارات ح ١ ص ٨٥

(٤) فهرسة مارواه عن شيوخه ص ٢٢

(٥) أنظر : تاريخ الأدب العربي ح ٢ ص ١٥٥ وما بعدها

ماعداد دمشق ، أما أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م
الذى وقف بين المدرستين النحويتين : البصرية والكوفية موقف التوفيق
ومعاصره أبو حاتم السجستاني فقد وضعاً في انتقائهما من القراءات مبدأ
الاختيار ولم يقم هذا المبدأ على أساس عدد القراء وإنما فوق هذا على قيمة
القراءات المحلية المختلفة وعلى منزلة القراء أنفسهم (١) .

ولا نفهم من كلام ابن الجزرى أنه رأى ذلك الكتاب إذ أنه يقول
وجعلهم — فيما أحسب — خمسة وعشرين فالظاهر أن الكتاب قد فقد بعد
القرن السادس الذى رواه فيه ابن خبير أو لعله كان موجوداً بعد ذلك
التاريخ ولكن ابن الجزرى المتوفى فى القرن التاسع لم يره ولعل الله يوفق
بعض الباحثين فى العثور عليه أو محاولة جمع نصوصه أو بعضها من الكتب
والمؤلفات التى ظهرت فيما بعد (٢) .

وقد نقل السيوطى عن هذا الكتاب فى النوع العشرين من كتابه :
الإتقان ٢٤٨/١

(١) أنظر : تاريخ التراث م (١) ص ١٥٢

(٢) يقول القفطى عن هذا الكتاب ، وله فى القراءات كتاب جيد ليس
لأحد من الكوفيين قبله مثله .

أنظر إنباء الرواة ح ٣ ص ١٥

٢ - كتاب معاني القرآن :

ذكره ابن التميمي ضمن مؤلفات أبي عبيد (١) ويقول الأزهري في مقدمة تهذيبه : ولأبي عبيد كتاب في معاني القرآن انتهى تأليفه إلى سورة طه ، ولم يتمه وكان المتذري سمعه من علي بن عبد العزيز وقرىء عليه أكثره وأنا حاضر .. ، وقد عده الأزهري من مصادره (٢) .

وقد أشار إليه القفطي (٣) ، وابن شاكر (٤) ، وذكره حاجي خليفة بين الكتب المؤلفة في معاني القرآن (٥) .

ويشير الدكتور حسين نصار إلى موضوع هذا الكتاب ونظائره وعلاقتها بالدراسات اللغوية فيقول :

« وقامت حول القرآن دراسات أخرى باسم معاني القرآن ، وتفسير القرآن ، ومشكل القرآن ، ولكن « المعاني » هي النواة الأولى للتفسير ، فهي أقرب إلى كتب الشروح منها إلى الكتب اللغوية الخالصة .

ويميز الفرق بينهما وبين كتب التفسير فيقول : الفرق بينهما أن كتب المعاني كانت تختار من الآيات ، أما كتب التفسير فكانت

(١) الفهرست ص ١١٢

(٢) تهذيب اللغة ج ١ ص ٢٠

(٣) إنباه الرواه ج ٣ ص ١٤

(٤) عيون التواريخ ٢٨٨

(٥) كشف الظنون ج ٢ ص ٤٦١

تحاول ألا تترك شيئاً بغير شرح وأن كتب المعاني هي الصورة الأولى
لكتب التفسير» (١) .

ويقول ابن الصلاح: وحيث رأيت في كتب التفسير: قال أهل المعاني
فالمراد به مصنفوا الكتب في معاني القرآن كالزجاج، والفراء، والأخفش
وابن الأنباري (٢) .

ولم يذكر «بروكلمان» شيئاً عن هذا الكتاب، مما يشير إلى أنه
ما زال مفقوداً .

وقد أشار «سزكين» إلى فقد أكثر تلك الكتب المتصلة بمعاني القرآن،
وأشار أيضاً إلى أنه لم يصل إلينا من كتب تلك الفترة إلا كتابان هما مجاز
القرآن لأبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٠ / ٨٢٥ م ومعاني القرآن للفراء
المتوفى سنة ٢٠٧ / ٨٢٢ م

ومعنى هذا أن كتاب أبي عبيد يعد من تلك الكتب المفقودة، والظاهر
أن سبب فقد هذا الكتاب يرجع إلى عدم تمام سماعه منه يقول القفطي
مشيراً إلى طبيعة هذا الكتاب ومصادره:

«و كذلك كتابه في معاني القرآن، وذلك أن أول من صنف في ذلك
من أهل اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى، ثم قطرب بن المستنير، ثم
الأخفش وصنف من الكوفيين الكسائي ثم الفراء، فجمع أبو عبيد من
كتبهم وجاء فيها بالآثار وأسانيدها وتفسير الصحابة والتابعين

(١) المعجم العربي: ١ ص ٤٩

(٢) الاتقان: ٢ ص ٣

والفقهاء ، وروى النصف منه ، ومات قبل أن يسمع منه باقية وأكثره
غير مروي عنه (١) .

وقد ذكرنا في سبب عدم تمام هذا الكتاب أن الإمام أحمد بن
حنبل كتب إلى أبي عبيد يقول : « بلغني أنك تؤلف كتاباً في القراءات
[كذا] ألفت فيه الفراء وأبا عبيد أئمة يحتاج بهم في معاني القرآن فلا تفعل »
كما ذكرنا أن إسماعيل بن إسحق أخذ الكتاب « وزاد فيه زيادة وانتهى
إلى حيث انتهى أبو عبيد وتوفي فجأة سنة ٢٨٢ (٢) .

٣ — كتاب غريب القرآن :

وقد ذكره ابن النديم في مؤلفات أبي عبيد (٣) ونقله عنه القفطي (٤)
وأشار إليه ابن شاكر (٥) وكذلك فعل حاجي خليفة في كشف الظنون
فقد ذكر أن جماعة قد أفردوا غريب القرآن بالتأليف منهم أبو الحسن
سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط المتوفى سنة ٢٢١ هـ والقتبي ، والنضر
ابن سميل المتوفى سنة ٢٠٣ هـ وأبو فيد مؤرج بن عمرو النحوي السدوسي
المتوفى سنة ١٧٤ هـ وأبان بن تغلب بن رباح أبو سعيد البكري المتوفى

(١) إنباه الرواة ١٤/٣ وما بعدها .

(٢) أنظار أبو علي الفارسي : حياته ومكانته ... للدكتور عبد الفتاح
شلي ص ٢٧١ وقارن بما كتبه د . عبد الجليل شلي في مقدمته لتحقيق معاني
للقرآن لازجاج ص ١

(٣) الفهرست ١١٢

(٤) إنباه الرواة ٢٢/٣

(٥) عيون التواريخ ٢٨٨

سنة ١٤١ هـ وأبو بكر أحمد بن كامل المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وأبو عبيد القاسم بن سلام الحريري (١) السكوني المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

وبذكر الدكتور حسين نصار أن ياقوتاً روى في معجم الأدباء أن كتاب أبي عبيد في غريب القرآن منتزع من كتاب أبي عبيدة (٢) . وقد ذكر هذا أيضاً د محمد حسين آل ياسين (٣) .

والواضح أن ياقوتاً قد نقل هذا الكلام عن أبي الطيب اللغوي الذي كان — فيما يبدو — لا يرى لأبي عبيد فضلاً في مؤلفاته وكان يحاول دائماً إرجاع الفضل فيها إلى غيره لأمر ما ربما عرضنا له فيما بعد (٤) .

هذا ولم يذكر بروكلمان ولا فؤاد سزكين شيئاً عن هذا الكتاب مما يدل على أنه مازال في عداد الكتب المفقودة وإن كان بروكلمان قد أشار إلى احتمال كون القائمة المشتملة على ماورد في القرآن من لغات القبائل مأخوذة من هذا الكتاب (٥) .

(١) عبون التواريخ ٢٨٨

(٢) كشف الظنون ١٥٨/٢

(٣) المعجم العربي : ٤١/١

(٤) الدراسات اللغوية عند العرب : ١٥٠

(٥) أقطر : مراتب الفحويين : ٩٣

(٦) أقطر : تاريخ الأدب العربي ١٥٩/٢

وقد طبعت تلك القائمة المشار إليها على هامش كتاب التيسير في علم التفسير لعبد العزيز الديريني المتوفى سنة ٦٩٤ هـ .

ولعلنا في غير حاجة إلى أن فنبه إلى ما لهذا النوع من التأليف من أثر في خدمة اللغة والحفاظ على معجمها وإمداده بما يكفل له البقاء والخلود فقد كفانا ذلك المؤلفون في تاريخ المعجم العربي ونشأته وتطوره . مثل الدكتور حسين نصار والدكتور عدنان الخطيب وغيرهما (١)

٤ — كتاب فضائل القرآن وآدابه (ه) :

ذكره ابن النديم، وابن خیر، وابن شاكر، وحاجي خليفة والزرکلی، وبروکلان . وغيرهم .

وقد ذكر جورجی زيدان أن منه نسخة في مكتبة «برلين» (٢) ويقول عنه بروکلان : « ولأبي عبيد كتاب بعنوان فضائل القرآن وآدابه يتحدث فيه عن فضائل القرآن كافة وفضائل بعض السور والآيات وعن المفردات والتفسير .. إلخ .

(١) انظر : المعجم العربي ١/ ٣٩ وما بعدها وانظر المعجم العربي بين الماضي والحاضر ٣٧ وما بعدها .

(ه) في فهرس المخطوطات بدار الكتب المصرية :

فضائل القرآن ومعالمه وأدبه تأليف أبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي الهروي المتوفى سنة ٢٨٤ [كفا] أوله باب فضل القرآن وقوله وتعليمه للناس .

نسخة في مجلد مصورة بالفرقتوسات عن مخطوطة مكتبة الدولة ببرلين في ٥٨ لوحة كل لوحة ذات شطرين ومسطرتها مختلفة [٢٠١٠ ب] .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ١١٨/٢

وأخرج هذا الكتاب تليد لم يذكر اسمه للقارىء محمد بن الحجاج
في حدود سنة ٣٢٠ هـ ٩٣٢ م ومنه مخطوط في برلين ٤٥١ وآخر في
توبنجن ٩٥ ونشره ليزن وبروتسل في مجلة إسلاميكا .

وربما كانت مأخوذة عن هذا الكتاب قائمة القراء التي ذكرها أبو شامة
في شرح الشاطبية وهي تشتمل على سلسلة من قراء الصحابة وأربعين من
قراء التابعين وخمسة عشر من قراء متأخرين وأنظر النوع العشرين من
كتاب الإتيقان للسيوطي ، وذكر ابن الجزري هذه القائمة أيضاً في كتاب
النشر ١ : ٨٥ وما بعدها دون تسمية المصدر (١) .

وقد رجعت إلى تلك القائمة - كما يسميها بروكلمان - في الإتيقان (٢)
والظاهر أن السيوطي قد أفاد فيها من كتاب القراءات إذ أنه قد ذكره
ونقل عنه قبل ذلك بقليل (٣) وهو لم يذكر هنا أى شيء عن فضائل القرآن
ولمّا كان الحديث عن معرفة حفاظه ورواياته فالمناسب أن يكون النقل
عن الكتب المتصلة بذلك وهي - بالطبع - كتب القراءات
والقراء .

ولقد ذكر « ميزكين » أن كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد من الكتب
التي وصلت إلينا من تلك الحقبة التي كان يتحدث عنها وقد أحالنا في ذلك
إلى بروكلمان (٤) كما أنه أشار إلى أن في هذا الكتاب بقية من غريب القرآن
المنسوب لابن عباس رضى الله عنهما (٥) .

(١) تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ١٥٨

(٢) الإتيقان : ١/٢٤٤ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٨

(٤) أنظر تاريخ التراث العربي م (١)/٢٢٢

(٥) المرجع نفسه ص ١٨٣

٥ — كتاب عدد أى القرآن :

وقد نسبته إليه فى الفهرست (١)، وأكّد القفطى هذه النسبة (٢)، وكذلك فعل ابن شاكر (٣)، والياقنى (٤).

ولم يذكر أحد من المحدثين شيئاً عن وجود هذا الكتاب فيما أطلعت عليه.

وقد أشار السيوطى إلى أن عدد أى القرآن قد أفردّه جماعة من القراء بالتصنيف وقد أشار إلى فائدة ذلك وسببه لكنه لم يذكر أحداً من هؤلاء المصنفين مردأ وإن كان قد نقل فيما يبدو عن بعضهم (٥).

كذلك لم يشر صاحب أبجد العلوم إلى أحد من المصنفين فى هذا العلم (٦).

فالظاهر أن هذا الكتاب قد ذهب إلى الضياع منذ وقت مبكر.

(١) الفهرست : ١١٢

(٢) لنباه الرواة ٢٢/٣

(٣) عيون التواريخ ٢٨٨

(٤) مرآة الخنان ٨٤/٢

(٥) الإتيقان ٢٣٠/١ وما بعدها.

(٦) أنظر ح ٥٠٠/٦

• — كتاب فاسخ القرآن ومنسوخه :

يقول ابن خير في فهرسته : كتاب فاسخ القرآن ومنسوخه تأليف أبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثني به شيخنا الخطيب أبو الحسن شريح بن شريح المقرئ رحمه الله قراءة عليه وأنا أسمع .

ويستمر بعد ذلك في ذكر الطرق والآسانيد التي تصل حبل روايته لهذا الكتاب بأبي عبيد رحمه الله (١) ، ويذكر حاجي خليفة أنه قد ألف في فاسخ القرآن ومنسوخه جماعة ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام (٢) .

وقد نسب كثيرون إلى أبي عبيد كتاباً باسم : الفاسخ والمنسوخ جاء ذلك في الفهرست لابن النديم (٣) ، وفي معجم الأدباء لياقوت (٤) ، وعيون التواريخ لابن شاكر (٥) .

ولم يذكر أحد من كل هؤلاء شيئاً عن مادة ما ذكره والظاهر أن الجميع يشيرون إلى كتاب واحد وأن الاختلاف جاء في اسمه فقط والاختلاف في أسماء الكتب أمر شائع بين الوراقين ، والنساخ والمؤلفين والمؤرخين .

هذا وما يزال هذا الكتاب — حسب علمي — معدوداً بين الكتب المفقودة .

(١) انظر فهرسة ما رواه عن شيوخه ٤٧

(٢) كشف الظنون ٥٨٠/٢

(٣) الفهرست ١١٣

(٤) معجم الأدباء ٢٦٠/١٦

(٥) عيون التواريخ ٢٨٨

٧ — كتاب شواهد القرآن :

وقد ذكره ابن خیر فی فهرسته فقال : كتاب شواهد القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثني به الشيخ الفقيه أبو الحسن يونس بن محمد ابن مغيث رحمه الله عن أبي عمر . . . علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد رحمه الله (١) .

ولم أر له ذكرًا عند غيره مما اطلعت عليه ، ولم نعرف شيئًا عن موضوعه ولا عن طبيعة الشواهد التي يعنها .

٨ — المجاز في القرآن :

وقد ذكره ابن شاكر باسم : كتاب المجاز (٢) أما الداودي فقد أطلق عليه تسمية المجاز في القرآن (٣) ، وقد ذكره ابن النديم باسم كتاب المجاز لأبي عبيد وذلك في غير ترجمته (٤) .

ولم أر — فيما اطلعت عليه — أن أحداً غير هؤلاء نسب إلى أبي عبيد كتاباً بهذا الاسم .

وإذا صحت نسبة هذا الكتاب المفقود إلى شيخنا فإن الذي نتصوره أن يكون موضوعه قريباً مما جاء في كتاب القرآن لشيخه أبي عبيدة معمر ابن المثنى .

(١) فهرست مارواه عن شيوخه ٧١

(٢) عيون التواريخ ٢٨٨

(٣) طبقات المفسرين الورقة ٢٠٠ (أ)

(٤) الفهرست : الكتب المؤلفة في معاني شتى من القرآن ص ٧٣

تلك أهم الكتب التي نسبت إلى أبي عبيد في علوم القرآن ، والمتأمل في أسمائها وفي نظائرها من الكتب التي عبرت الزمن إلينا يرى أن القاسم المشترك بينهما جميعاً هو العناية بالقرآن الكريم وبأخيه العربية الخالدة ومن ثم فإنها جميعاً أو أكثرها تعد من أهم مصادر الدراسات اللغوية وبخاصة ما يتصل منها بغريب القرآن ومعانيه وفنائه ومجازه وقرائمه .

وذلك هو الطابع العام في كل ما خطه يراع هذا العالم الفذ كما سيأتي :

• • •

ثانياً — كتب الفقه والعقيدة والأخلاق :

لقد نسب إلى أبي عبيد مجموعة كبيرة من الكتب والدراسات الفقهية عن المؤرخون بذكر بعضها وأعرضوا عن ذكر بعضها الآخر .

وقد أشار إلى هذا ابن النديم بقوله بعد ذكر قائمة كتب أبي عبيد: وله غير ذلك من الكتب الفقهية^(١) ويقول البغدادي أيضاً : وله كتب لم يروها وقد رأيتها في ميراث بعض الظاهريين تباع كثيرة في أصناف الفقه كله .

ويهمنا هنا أن نذكر أهم تلك الكتب التي لم يغفلها المؤرخون لهذا الفقيه المجتهد .

(١) الفهرست ١١٣

(٢) تاريخ بغداد ١٢ / ٤٠٤

كتاب الأموال :

وهو مطبوع مشهور ومعروف لسلك الباحثين في الجانب الاقتصادي من الفقه الإسلامي .

ويقول بروكلمان عنه إنه يتناول أحكام الزكاة والخراج على أساس أدلة الحديث التي ينبغي بحث علاقتها بكتب الخراج الصادرة عن الإدارة العلمية ومن مذاهب أخرى للمدارس الفقهية ، نشره محمد حامد الفقي بالقاهرة سنة ١٤٥٣ هـ اعتماداً على أصل مخطوط في مكتبة دمشق العمومية ٢٣ ٤٠٥ ٢٤ ٣١٠ وعلى أصل آخر في القاهرة (١) .

والنسخة التي بين يدي ليست بتحقيق محمد حامد الفقي وإنما هي بتحقيق وتعليق محمد خليل هراس وهي موسومة بالطبعة الثانية .

وقد أشير في مقدمتها إلى الطبعة الأولى بصورة توحى أن تلك الطبعة أيضاً كانت بتحقيق وتعليق الهراس نفسه .

ومهما يكن فإن هذا الكتاب يعد من أعظم ما كتب في الفقه الإسلامي وقد ذكره السابقون وأشاروا إليه وإلى قدره العظيم .

فقد ذكره ابن النديم في مؤلفات أبي عبيد وكذلك القفطي حيث يقول : و كتابه في الأموال من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده (٢) .

لكن البغدادى يرى غير هذا حيث يقول : وأضعف كتبه كتاب الأموال يحىء إلى باب فيه ثلاثون حديثاً وخمسون أصلاً عن النبي — صلى

(١) تاريخ الأدب العربي ١٥٩/٢

(٢) انباه الرواة ١٥/٣

الله عليه وسلم — فيجىء يحدث بجديتين يجمعهما من حديث الشام ويتكلم في ألفاظهما (١) .

ومن الواضح أن هذا النقد يأتي من جانب قلة الحديث في الأبواب وربما كان عند أبي عبيدة في هذا أن الكتاب يقصد به الفقه أكثر مما يقصد به الحفظ والرواية فهو ليس سنداً أو مرجعاً من مراجع الحديث .

أما الكلام في ألفاظ الحديث فتلك صناعة أبي عبيد وبضاعته وقد امتدت آثارها إلى كل كتبه في الفقه والحديث وبذلك كان كتاب الأموال ككل كتب أبي عبيد زاخراً بالتفسيرات اللغوية معتمداً على ما لصاحبه من ثقافة لغوية واسعة في توضيح تلك النصوص البالغة في عروبتها وفصاحتها .

وقد ذكر ابن خیر هذا الكتاب وروايته له تحت عنوان كتب الفقه هلى مذهب مالك بن أنس رحمه الله (٢) ، وكأنه كان يعتقد بأن أبا عبيد من تلاميذ المدرسة المالكية وفي هذا إشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من تنازع المذاهب الفقهية حول أبي عبيد .

وقد عرف خبراء الاقتصاد في عصرنا لهذا الكتاب أهميته وقدره وانتفع به الباحثون في الاقتصاد الإسلامى أيماء انتفاع .

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤١٣

(٢) انظر فهرست مارواه عن شيوخه ص ٢٤٠ و ص ٢٤٨

٢ — كتاب الحجر والنفلين :

وقد ذكره صاحب الفهرست في مصنفات أبي عبيد (١) وتبعه في هذا القفطي في إنباه الرواة (٢) ، وكذلك فعل ياقول في معجم الأدياء (٣) ويتضح موضوعه من اسمه ، ولم نطلع على نص يثبت وجوده فهو من الكتب السكينة المفقودة .

٣ — كتاب الحيض :

وهو من الكتب النحوية التي ذكرها ابن النديم في مصنفات أبي عبيد وكذلك ذكرها القفطي ، وذكر حاجي خليفة (٤) أبا عبيد بين من ألفوا كتباً بهذا الاسم .

٤ — كتاب الطهارة :

وموضوعه يتضح من تسميته وقد ذكره ابن النديم (٥) والقفطي (٦) وغيرهما .

وفي تاريخ بغداد يقول عبد الغني بن سعيد الحافظ أن في كتاب الطهارة لأبي عبيد القاسم بن سلام حديثين ما حدث بهما خير أبي عبيد ولا عن

(١) الفهرست ص ١١٣

(٢) إنباه الرواة ٢٢/٣

(٣) معجم الأدياء ٢٦٠/١٦

(٤) كشف الظنون ٢٧٤/٢

(٥) الفهرست ١١٣

(٦) إنباه الرواة ٢٢/٣

أبي عبيد غير محمد بن المروزي أحدهما حديث شعبه عن عمرو ابن وهب
والآخر حديث عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري حدث به يحيى القطان
عن عبيد الله وحدث به الناس عن يحيى القطان عن ابن حجلان (١) وقد
ذكر البغدادى هذين الحديثين كما مر .

ولم نر فيما تحت أيدينا شيئاً يوضح لنا مصير هذا الكتاب ويبين لنا
موقفه ومستقره .

٥ - كتاب أدب القاضى :

وهو من مؤلفات أبي عبيد التي أحصاها ابن النديم (٢) ولم يذكر لنا
شيئاً عن طبيعتها أو مصيرها وكذلك فعل سائر المؤرخين لأبي عبيد
كالقفطى وغيره (٣) .

ولم كنا نود معرفة شيء عن هذا الكتاب الذى عمل مؤلفه بالمقضاء
ثمانى عشرة سنة كما يذكر المؤرخون (٤) ولما كنا نعد حتى الآن وحسب على
فى كتب أبي عبيد المفقودة ، وقد ذكر حاجى خليفة أنه على مذهب
الإمام الشافعى (٥) .

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤١٣

(٢) الفهرست ١١٣

(٣) انباه الرواة ٣/٢٢

(٤) وفيات الأعيان ٣/٢٢٥

(٥) فقد ذكره باسم : أدب القاضى على مذهب الشافعى ١/٧٣

٦ — كتاب الإيمان والنذور :

ذكره ابن النديم ، والقفطى وغيرهما وموضوعه يتضح من اسمه
ولكننا لا نعرف شيئاً عن مصيره

* * *

وإذا كانت المكتب السابقة تمثل — كما هو واضح الجانب الفقهي من
ثقافة أبي عبيد فإن من كتبه ما هو متصل أيضاً بالجانب العقدي
والأخلاقي ومن أهمها :

١ — كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستحکاله ودرجاته :

ذكره بروكلمان وأشار إلى وجوده بالمكتبة الظاهرية بدمشق ٣٧ ،
١١٦ ، ٤ (١) .

ومع أنه لم يهياً لنا الاطلاع عليه فإنه يبدو لنا أنه يتصل بأصول الدين
والجانب العقدي فيه .

وربما سوع لنا هذا أن نشير هنا إلى صفاء عقيدة أبي عبيد وفقائها من
كل ما كان يشوب مجتمعه من أفكار وآراء لا يرضى عنها الإسلام
وربما توضح لنا هذه الرواية شيئاً من ذلك ، وهي مما ذكره الزبيدي
في طبقاته :

« قال مروان سمعت الدوري يقول : سمعت أبا عبيد وذا كروه عن
رجل من أهل السنة يقول : هذه الأحاديث التي تروى في الرؤية ،

والكرسى ، ووضع القدمين ، وضحك ربنا من قنوط عباده ، وإن جهنم
لتمتلىء . . . وأشبه هذه الأحاديث (حق) فقالوا إن فلانا يقول يقع في
قلوبنا أن هذه الأحاديث حق قال أبو عبيد : ضعفتم عندي أمره هذه
حق لاشك فيها رواها الثقة بعضهم عن بعض إلا أنا إذا سئلنا عن تفسير
هذه الأحاديث لم نفسرها ولم يدرك أحد تفسيرها (١) .

وتدل هذه الرواية على مذهب أبي عبيد ورأيه الذي تبدو فيه روح
السلف واضحة ظاهرة ، فهو إذن سائق العقيدة ، ويؤكد الزبدي هذه
الرواية برواية أخرى فيقول :

، قال أبو سعيد الأعرابي : سمعت عباسا الدوري يقول : سمعت أبا
عبيد يقول : عاشرت الناس وكلت أهل الكلام فما رأيت قوماً أضعف
ولا أوسخ ، ولا أقدر ، ولا أضعف حجة ، ولا أحق من الرافضة وأقد
وليت قصاء النغر فأخرجت منهم ثلاثة جهمين ورافضا أو رافضيين
وجهميا وقالت : مثلكم لا يجاور الثغور (٢) .

ولعل هذين النصين مما ورد في كتاب الإيمان المذكور وستظل هذه
القضية في دائرة الافتراض حتى يوفق الله من يخرج هذا الكتاب إلى عالم
النشر والانتشار .^١

(١) طبقات النحويين واللغويين ص ٢١٨

(٢) المرجع السابق ٢١٨

٢ — كتاب آداب الإسلام :

وقد ذكر بروكلمان أن العلوى قد نقل في كتابه ألف ياء ٢٧/٢
نصوصاً من كتاب لأبي عبيد في آداب الإسلام ولم يذكر هو ولا غيره
— فيما اطلعت عليه — شيئاً آخر عن هذا الكتاب ، والنص الذى أشار
إليه بروكلمان هو : تقدم قوس قزح كره بعض العلماء أن يقال كذلك
خرج القاسم بن سلام في كتاب آداب الإسلام له قال : لا تقولوا قوس
قزح فإن قزح شيطان ولكن قولوا القوس (١) .

٣ — كتاب مواعظ الأنبياء :

يقول ابن خیر : كتاب مواعظ الأنبياء لأبي عبيد حدثني به أبو محمد
(بن عتاب) عن أبيه رحمه الله . . . فاعلى بن عبد العزيز عن أبي عبيد
مؤلفه (٢) .

ولم أر — فيما اطلعت عليه — أحد يذكر أن لأبي عبيد كتاباً بهذا
الاسم إلا أن بروكلمان قد ذكر فيما نسب لأبي عبيد كتاباً باسم : كتاب
الخطيب والموعظ (لينرج أول ١٥٨ (٣)) فهل هما كتاب واحد ؟ الله أعلم .

تلك أهم الكتب التى ذكرها المؤرخون لأبي عبيد فى الجانِب
الفقهى والعقدى والخلقى ، وهى كلها لا نخرج عما سبق ذكره من كونها
ذات طابع لغوى يعطيها حسناً ويزيد من قباحتها وقائدها يقول القفطلى :

(١) كتاب ألف با ٢٨/١

(٢) فهرست ما رواه عن شيوخه ٢٩١

(٣) تاريخ الأدب العربى ١٥٩/٢

« وأما كنبه في الفقه فإنه عمد إلى مذهب مالك والشافعي فتقلد أكثر ذلك وأتى بشواهد ، وجمعه من حديثه ورواياته ، واحتج فيها باللغة والنحو فحسنها بذلك ، (١) .

وأبو عبيد في هذا كله هو الفقيه اللغوي أو اللغوي الفقيه ومن هنا كان تميزه على أقرانه كما سبق ذكره .

ثالثاً : كتب التاريخ والأنساب :

كان أبو عبيد كما سبقت الإشارة إليه لغوياً صاحب تاريخ وأنساب وأخبار .

وهناك نقول كثيرة يحتاج أصحابها بأبي عبيد في تلك الجوانب التاريخية والأخبارية والنسبية .

بل إنه لم يكن لنا الاستطراد هنا إلى القول بأن أبا عبيد كان أيضاً من أصحاب المعارف الجغرافية ، كما يذكر كراتشكوفسكي .

وقد ذكر المؤرخون لأبي عبيد في هذا عدة كتب لكنها جميعاً لم تر النور بعد ولا يدرس أحد شيئاً عنها إلا تنقلاً قليلة تذكر في بعض الكتب أو الموسوعات الأدبية والعلمية .

ومن أهم هذه الكتب :

١ — كتاب الأحداث :

ويدل إسمه على أنه في التاريخ وقد ذكره صاحب الفهرست (٢) والقفطي (٣) .

(٢) الفهرست ١١٢ .

(١) إنباه الرواة ١٥/٣ .

(٣) إنباه الرواة ٢٢/٣ .

٢ — كتاب النسب :

ويتضح من اسمه أنه في علم الأنساب وهو علم كان سائغا عند العرب في تلك الفترة و كان له علماء و رجاله ولم يكن موضوعه مقصورا على أنساب الناس بل كان يتعدى ذلك إلى أنساب الحيوانات التي عنى العرب بها كالخيل والإبل .

ولقد ذكر صاحب تاج العروس في مقدمته بعض الكتب منسوبة إلى أبي عبيد و كان منها كتابان هما : كتاب أنساب العرب و كتاب أنساب الخيل ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن الوحدة أو التعدد فيما نسب إلى أبي عبيد من هاتين التسميتين : كتاب النسب و كتاب أنساب العرب .

وقد ذكر التسميه الأولى ابن النديم والقفطي كما ذكرها أيضاً ابن خير في فهرسته فقال : كتاب النسب لأبي عبيد القاسم بن سلام رحمه الله حدثني به شيخنا أبو عبد الله . . . عن أبي الحسن علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد وأسنده أيضاً بروايات أخرى (١) .

والظاهر أنه قد جرت على هذا الكتاب بعد ذلك دورة الزمان فأخفته فيما أخفت من ذخائر أبي عبيد وجواهره .

٣ — مقاتل الفرسان :

ذكره بروكلمان ضمن الكتب التي نقل الناس منها وأشار إلى أن الناقل هنا هو السيوطي في المزهري .

(١) فهرسة مارواه عن شيوخه ٢٣٩ .

وبمراجعة المزهري ٤٣٤/١ وجدت هذا النص :

« وفي مقاتل الفرسان لأبي عبيدة : السهر في الخير والشر ، والأرق لا يكون إلا في المكروه وحده » .

فهل النص والكتاب لأبي عبيد أو لأستاذه أبي عبيدة ؟ إن أحداً من ترجموا لأبي عبيد لم يذكر له كتاباً بهذا الاسم فهل نجده في ترجمة أبي عبيدة ؟

لقد ذكر السيوطي أن لأبي عبيدة كتاباً باسم طبقات الفرسان (١) فهل ثمة علاقة بين هذا الكتاب والكتاب السابق ؟ إن القضية ما تزال في حاجة إلى مزيد من التحقيق ، ولقد وجدت في المزهري نصاً آخر منسوباً إلى أبي عبيد في مقاتل الفرسان هو : عبد الله بن الصمة أخو دريد بن الصمة قال أبو عبيد في مقاتل الفرسان : « وكان له ثلاثة أسماء وثلاث كنى وكان اسمه عبد الله ومعبداً وخالداً ويكنى أباً فرعان وأباً أوفى وأباً ذفاة . وهذا النص الأخير يؤكّد نسبة الكتاب إلى أبي عبيد فلعل النص الآخر كذلك وزيدت التاء فحدث اللبس .

٤ — كتاب فضائل الفرس :

ذكره ونسبه إليه « بروكلمان » وذكر أن صبح الأعشى قد نقل عنه وأشار إلى موطن هذا النقل (٢) وبمراجعة صبح الأعشى رأينا أنه يتحدث عن مدينة دمشق فيقول ضمن هذا الحديث « وفي كتاب فضائل الفرس

(١) بغية الوعاة ٢/٢٩٤ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢/١٥٩ .

(بضم الفاء وسكون الراء) لأبي عبيد أن بيوراسب ملك الفرس بنهاها، (١)
ويبدو من هذا النص أنه كان يعالج في هذا الكتاب الذي لا نعلم شيئاً
آخر عنه بعض تاريخ الفرس .

رابعاً : كتب الحديث :

كان أبو عبيد — كما سبق — من كبار الحفاظ وأئمة علوم الحديث
والسنة ، وقد ذكره علماء هذا الفن وأثنوا على علمه ورواياته إلا أننا
لم نعثر له على كتاب أو مؤلف خاص برواية الحديث مجرداً عن الفقه
واللغة وغيرهما على نحو مسند الإمام أحمد الذي كان معاصراً له .

ذلك أن أبا عبيد كان قد شغل بالجانب اللغوي في الأحاديث والآثار،
وأخذ على نفسه أن يقدم فيه عملاً ينفع الله به المسلمين ، ويكون فرباساً
للكاملين في هذا الميدان .

وقد وفقه الله فأخرج كتاب غريب الحديث فيما يقرب من أربعين
سنة كما سيأتي .

وإذا كان بعض المؤرخين يعلقون أحياناً مصطلح المسند على هذا
الكتاب ويبدونه من بين كتب إسناد الحديث ورواياته فإننا نميل إلى
وضعه بين كتب اللغة أو لغة الحديث النبوي ناظرين في ذلك إلى طبيعة
الكتاب نفسه تلك التي لمحمداً الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث في تقديرهم
لعمل أبي عبيد كما سند كره إن شاء الله .

وإلى أن يأتي الكلام عن غريب الحديث نحب أن نشير إلى بعض من ذكروا أن لأبي عبيد مسنداً .

لقد فعل هذا حاجي خليفة قد ذكر « مسند القاسم بن سلام البغدادي وهو مشتمل على الغريب » (١) .

وقد نبه صاحب تذكرة النوادر إلى أن هذا المسند يقصد به غريب الحديث حيث يقول متعرضاً لاختلاف أسماء الكتب : « وغريب الحديث لأبي عبيد كان يسمى أيضاً بالمسند كما تقدم » (٢) .

خامساً : كتب الأدب :

لقد كان أبو عبيد أديباً مؤدباً راوياً للأدب مؤلفاً فيها على طريقه عصره التي يصعب الفصل فيها بين المؤلفات الأدبية الخاصة وغيرها من كتب اللغة والمعارف العامة ، وقد وردت عن أبي عبيد بعض عبارات تدل على وعيه وتذوقه لما في اللغة من ملاحم الفن والجمال .

من ذلك ما رواه أبو حاتم قال : قال أبو عبيد : مثل الألفاظ الشريفة ، والمعاني الطريفة ، مثل القلائد اللائحة ، في الترائب الواضحة (٣) .

هذا وقد نسب إلى أبي عبيد من تلك الكتب الأدبية ما يأتي :

(١) كشف الظنون ٤٣٤/٢ .

(٢) تذكرة النوادر ٩٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٤١٠/١٢ .

معاني الشعر :

وقد نسبته إلى أبي عبيد ، وأشار إليه بروكلمان ضمن كتبه المنقول عنها ولم يذكر لنا شيئاً عن فقدته أو وجوده وإن كان قد أرشدنا إلى النص المنقول عنه في طبقات الشافعية لابن السبكي (١)

ولعل قراءتنا لهذا النص توضح لنا شيئاً عن طبيعة هذا الكتاب .

يقول ابن السبكي :

قال أبو عبيد في قول الشاعر :

فإن أدع اللواتي من أناس أضاعوهن لا أدع اللذينا

الذي هذا لاصلة لها والمعنى إن أدع ذكر النساء لا أدع ذكر الرجال قلت : هذا البيت للكميت وهو شاهد ذكر الموصول بغير صلة لقرينة .

قال أبو عبيد في معنى قول الشماخ :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

إن فيهما تقدماً وتأخيراً والتقدير في الأول : وماء كالورق اللجين عليه الطير ، واللجين الذي قد ضرب حتى تلجن ، والتقدير في الثاني مقام الذئب اللعين كالرجل انتهى ذكره في كتابه في معاني الشعر (٢) .

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ / ١٥٩

(٢) طبقات الشافعية ١ / ١٧٣

وهكذا يبدو لنا أن موضوع هذا الكتاب كما يظهر من هذا النص كان لغويا أدبيا أو قل كان أدبيا بالمعنى الواسع للأدب .

٢ — كتاب الشعراء :

ذكره ابن النديم (١) والقفطى (٢) وخيرهما بمن نقل عن الفهرست ولم يذكر أحد ممن أطلعت على ترجماتهم شيئا عن موضوع هذا الكتاب والذي نرجحه أنه ربما كان على نسق كتاب محمد بن سلام الجمحي المعروف بطبقات فحول الشعراء وقد كان أبو عبيد وابن سلام متعاصرين وهذا مجرد احتمال إلى أن نتمكن من العثور على هذا الكتاب أو على ما يوضح طبيعته من أوصاف أو نصوص .

٣ — كتاب الأمثال :

وقد نسبته إليه صاحب الفهرست (٣) والقفطى (٤) ، وقد رواه ابن خير و ذكر إسناد رواياته في فهرسته كما ذكر ذلك بالنسبة لشرح المعروف بفصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري (٥) .

وقد ذكره « بروكيان » قال : ويسمى المجلة كما ذكر ذلك صاحب الخزانة ٢ : ١١١ س ٢ والظاهر أن بروكيان قد أتى في هذه التسمية من ناحية

(١) الفهرست ١١٢

(٢) أنباء الرواة ٣ / ٢٢

(٣) الفهرست ١١٢

(٤) أنباء الرواة ٣ / ٢٢

(٥) فهرسة مارواه عن شيوخه ص ٣٣٩ ، ٣٤٤

أن لأبي عبيدة معمر بن المثنى كتاباً في الأمثال ذكره ابن خير وأشار إلى تسميته بالجملة (١) .

ويوضح لنا « بروكلمان » بعد ذلك أن هذا الكتاب مازال موجوداً فهو يوجد برواية ابن خالوية المتوفى سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م في كوبريلي ١٢١٩ كما يوجد أيضاً في باريس أول ٣٩٦٩ والموصل ٢٠٦ والمتحف البريطاني ٩٩٥ وفيض الله ١٥٧٨ ورامبور .

ويوجد أيضاً برواية أبي الحسن علي بن عبد العزيز — انظر فهرست ابن القديم ٧٢ — ما نشر ٧٧٣

ومنه مخطوط عن نسخة بخط المؤلف مع زيادات أخرى في اسكوريال ثاني ١٧٥٧

ويوجد مختصر منه في القاهرة أول ٤ : ٣٢١ وقد نشر هذا المختصر مرتباً على حروف الهجاء ضمن كتاب التحفة البهية في استانبول سنة ١٣٠٢ هـ ص ٢ : ١٦ ، ونشره برتر في جوتنجن ١٨٣٦

... ولكن هذا الكتاب متأخر كثيراً عن كتاب الأمثال لأبي عبيد . .

ثم يذكر بروكلمان أن البكري قد شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد بكتاب عنوانه : فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ومنه مخطوط في اسكوريال ثاني ٥٢٦ كما يوجد مخطوط منه في مكتبة الفاتح ٤٠١٤ (نقلاً عن رتز) ومنه مخطوط آخر في لال (٢) ١٧٩٥

(١) انظر فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤١

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٧/٢ وما بعدها .

وقد جاء في فهرس المخطوطات ص ٧٧ : أمثال العرب : تأليف الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي المتوفى سنة ٥٢٢ هـ وتلك تسمية أخرى للكتاب كما يظن ، وقد سماه بعضهم أيضا بالأمثال السائرة ، والمعروف أن كل هذه التسميات إنما هي لكتاب واحد .

وينفى الدكتور عبد المجيد عابدين أن تكون تلك الرسالة المنشورة في كتاب التحفة البهية المطبوع في الآستانة سنة ١٣٠٢ هـ والتي تشغل من ص ٢ إلى ص ١٦ والمحسوبة على ب ٨ مثلاً مرتبة على حسب حروف المعجم . والتي تنوّل فيها عبارات الأمثال دون شرح أو تعليق — ينفى الدكتور نسبتها إلى أبي عبيد مؤكداً أن لأبي عبيد كتاباً واحداً في الأمثال .

وقد وصل إلينا هذا الكتاب كما وصل إلينا شرحه لأبي عبيد البكري .
يقول الدكتور :

(بل وصل إلينا كتاب الأمثال الذي عرفه القدماء لأبي عبيد وله نسخة مصورة لا تزال تنتظر من ينشرها ، منها نسخة مصورة من اليمن وهي مكتوبة في القرن الخامس ، وأخرى أحدث منها بقليل ، مصورة من مكتبة فيض الله أفندي بالاستانة رقم ١٥٧٨)

وفيما يلي نورد جزءاً من مقدمة الكتاب نقلاً عن النسخة الأخيرة :
« هذا كتاب الأمثال ، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ به ما حاولت من حاجاتها في المنطق بكتابة غير قصريح ، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد ألفناها في كتابنا هذا على منازلتها ولخصنا صنوفها ، وذكرنا المواضع التي يتكلم بها فيها ، ونضرب عندها واسمداها إلى علماءها ، واستشهدنا بنواذر الشعر عليها أو على ما أمكن منها ، وكان مما دعانا إلى تأليف هذا الكتاب وحثنا عليه ما رويناه من الأحاديث الماثورة عن النبي

ﷺ أنه قد غنى بها ، وتمثل بها هو ومن بعده من السلف ، وقد ذكرنا ذلك ليكون حجة لمذهبنا ، (١) .

ولهذه المقدمة أهمية كبرى حيث إننا لم نعر على أية مقدمة لأى كتاب من كتب أبى عبيد وإنها لتدل على عقلية منظمة ، وتفكير هادى . منمق ، وأسلوب علمى وأدبى رائع ، فقد أوجز الشيخ فى تلك السكامة القصيرة موضوعه ، وغرضه ، ومنهجه ، والأسباب التى دفعته إلى هذا التأليف .

وإن هذا ليؤكد لنا ما سبق أن ذكرناه فى غير هذا المكان من أن علماء العربية كانوا على منهج صائب ، ومنهج مستقيم ، وأننا عندما نضع أيدينا على مقدمات كتبهم ، وما فى ثناياها ، سنقف على علم المنهجية أو المناهج العربى ، وسنرى فيه ما يغنى ويشرح ويوضح لنا قدر بضاعتنا التى ترد إلينا ، فتمير أهلنا ، ونزداد فضلا وتيسيرا .

وقد أخذ أبو عبيد فى هذا الكتاب عن عدد كبير من علماء اللغة والآداب منهم من كان صاحب تأليف فى الأمثال مثل المفضل الضبى المتوفى سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م و كتابه فى الأمثال مطبوع فى الآستانة وفى القاهرة وأبى الفيد مؤرج السدوسى العجلي المتوفى سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م و كتابه ما زال مخطوطا فى مكتبة الأسكوريال تحت رقم ١٧٠٥ ، وأبى عبيده معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م و كتابه ما زال مخطوطا ، وأبى زيد الأنصارى المتوفى سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م وقد أشار إلى كتابه هذا القدماء ولكن لا نعرف شيئا عنه ، والأصحى المتوفى سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م .

ويقول محققا كتاب فصل المقال : ولعل معظم ما نقله أبو عبيد القاسم فى أمثاله كان عن أستاذه الأصمعى ، ويذكر القدماء أنه صنف كتابا فى

الأمثال ولكن لم يصل إلينا ، ومن الممكن أن تجمع جزءا غير قليل من أمثال الأصمعي مما رواه أبو عبيد القاسم في كتابه ، وقد أشار البكري إلى كتاب الأصمعي هذا (انظر ص ٤٢ ، ٢١٩) (١) .

كما أخذ أبو عبيد عن أساتذته الآخرين الذين لم تذكر لهم كتب في الأمثال مثل الكشائي المتوفى ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، وأبي زكريا الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م ، وعلي بن المبارك الأحرار المتوفى سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م — ٨١٠ م ، والاهوي المتوفى سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م ، وهشام الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م .

وهؤلاء جميعا يعدون من أكثر المصادر التي اعتمد عليها أبو عبيد في كتبه ونهضة الكتب النحوية والأدبية وكان أخذه عنهم بأفضل الطرق التي يعتمد عليها المنهج العلمي وترضاها أصول الرواية وليس بالانتزاع أو التجميع على نحو ما يشير إليه بعضهم أحيانا .

وقد عني العلماء والأدباء بهذا الكتاب عناية حظيت بها كل كتب أبي عبيد .

فقد رواه عنه تلاميذه وفي مقدمةهم علي بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م ، وثابت بن أبي ثابت وقد ذكر علي بن عبد العزيز أنه قرأه على أبي محمد سلمة بن عاصم النحوي صاحب الفراء فزاده فيها أشياء ألحقها في حواشي الكتاب ، كما أنه قرأه أيضا علي أبي عبد الله الزبير بن بكار وهو قاضى مكة وكتب ما زاده فيه ونسبه إليه .

ومن قرأ الكتاب أيضا وأضاف إليه بعض الحواشي بخطه الإمام اللغوى أبو بكر محمد بن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ أو ٣٢٨ / ٩٤٠ م

(١) مقدمة تحقيق فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص ٢

وقد رواه أيضا ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ هـ ٩٥٨ م وظاهر بن عبد العزيز القرطبي المتوفى سنة ٣٠٥ هـ ٩١٧ م وتلقاه أبو علي القفالي عن ابن درستويه وكذلك أخذ عن القفالي أبو عمر أحمد بن أبي الحباب وغيرهما وتلقاه عن طاهر قاسم بن سعدان ، وأبو بكر بن القوطية وغيرهما .

وقد حمل الكتاب إلى الأندلس وروى بها حتى بلغ أبا حميد البكري ويقال إن أول من أدخل هذا الكتاب إلى الأندلس هو وهب بن نافع — ٢٧٣ هـ (١) .

وقد ذكر البكري في أول شرحه سلسلة روايته لكتاب أبي حميد (١) . كما ذكر ابن خير عدة طرق لروايته لهذا الكتاب (٣) .

وقد ظهرت حول هذا الكتاب عدة دراسات ومؤلفات من أهمها :

١ — كتاب زيادات أمثال أبي حميد لمحمد بن أبي جعفر المنذرى الخراساني اللغوي العدل أبي الفضل .

ذكره ياقوت (٤) ، وقد شار إليه الأزهرى فقال : « لأبي حميد كتاب الأمثال ، قرأته على أبي الفضل المنذرى ، وذكر أنه عرضه على أبي الهيثم الرازى ، وزاد أبو الفضل في هذا الكتاب من فوائده أضعاف الأصل قسمنا الكتاب بزياداته » (٥) .

(١) فصل الأمثال : المقدمة ص ٥ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ٥

(٣) انظار الفهرسة ص ٣٣٩ وما بعدها

(٤) إنباه الرواة حاشية ص ٧١

(٥) تهذيب اللغة ج ١ ص ٢٠

٢ — شرح أمثال أبي عبيد لمحمد بن آدم بن كمال أبي المظفر الهروي
الأستاذ الكامل الإمام في الأدب والمعاني مقدم زمانه في شرح الآيات
والألفاظ والأمثال ... توفي سنة ٤١٤ هـ (١) .

وقد ذكر هذا الشرح صاحب كشف الظنون (١) أيضا .

٣ — شرح أبيات أمثال أبي عبيد لعبد الله بن أحمد بن الحسين الشامي
المتوفى سنة ٤٧٥ هـ (٣) .

٤ — فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري الأوني
المتوفى سنة ٤٨٧ هـ وهو مطبوع مشهور وقد قام بتحقيقه الدكتوران :
عبد المجيد عابدين وإحسان عباس .

ويقول البكري في مقدمته بعد حمد الله والصلاة والسلام على سيدنا
محمد وصفوة الله من رسوله :

« أما بعد فإني تصفحت كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام
فرأيت أنه قد أغفل تفسير كثير من تلك الأمثال ، فجاء بها مهمة ، وأعرض
أيضا عن ذكر كثير من أخبارها فأوردها رسالة فذكرت من تلك المعاني
ما أشكل ، ووصلت من تلك الأمثال بأخبارها ما فصل ، وبينت ما أهمل
ونبهت على ما ربما أجهل إلى أبيات كثيرة غير منسوبة نسبها ، وأمثال جملة
غير مذكورة ذكرتها ، وألفاظ عدة من الغريب فسرتها وعلى الله قصد
السبيل ، وهو حسنا ونعم الوكيل .

(١) إنباه الرواه ح ٣ ص ١٢٦

(٢) كشف الظنون ح ١ ص ١٥٠

(٣) نهذيب الأسماء واللغات للثوري ص ٢٧٨

وقد رتبتهما على عشرين بابا يتفرع منها أبواب في محالها (١) .
وقد كان للبكري على الهروى تقود أهمها :

١ — الإهمال في نسبة الشعر إلى قائله أو الجهل بذلك القائل .

ومن ذلك أن يقول أبو عبيد عند رواية بيت شهير لأبي خراش
الهنلى : يقول الشاعر فى سالف الدهر ص ٢١١ من هذا الكتاب . ومنها
أيضا قوله عندما روى البيت :

فتى كان يديه الغنى من صديقه

إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

« وهذا البيت يقول بعضهم انه لعثمان بن عفان » وعند هذا الموقف
يغضب البكري فيقول معاقبا : كيف جهل أبو عبيد أن هذا البيت من شعر
الأييرد اليربوعى وهو أشهر من أن يحمله أحد فكيف يحمله أحد الجملة من
العلماء بفتون العلم ص ٣٣٥ ، (٢) .

٢ — الخطأ فى فهم بعض الأمثال .

٣ — الإحالة إلى كتات غريب الحديث والغريب المصنف .

٤ — التخرج من ذكر بعض الأسماء أو رواية بعض القصص (٣) .

على أن البكري كان كما يقول المحققان أحيانا نادى يتكلم فى بعض التخریجات
ويأخذ على أبى عبيد ما يقع فيه غيره من العلماء « تـ

كما أن مما يمكن أن يلام البكري عليه أنه أغفل كثيرا من أمثال أبى عبيد
فلم يذكر منها إلا ما ناسب الشرح (ونحسب أن ما حذفه من الأمثال من

(١) فصل المقال ص ٣

(٢) فصل المقال : مقدمة المحققين ص ن ، س

(٣) انظر أمثلة ذلك فى المرجع السابق ص س ، ع

أصل أبي عبيد أضعاف أضعاف ما زاده إليه أثناء الشرح لأنه كان في بعض الأحيان يغفل أبايا كاملة (١) .

هذا وقد ذكرنا أن كتاب أبي عبيد لم يكن يضم كثيرا من الأمثال وأرجع بعضهم هذه القلة إلى ما التزمه أبو عبيد من نظام التبويب فلم يستطع أن يذكر من الأمثال إلا ما دخل تحت تلك الأبواب أو الفصول والحق أني لا أسلم مطلقا بتلك العلة وأرجح أن يكون السبب في ذلك راجعا إلى ما عرف عن أبي عبيد من الدقة ، والتخرج في الرواية ، والمثالية الخلقية فيما يذكر ويروى .

وعلى هذا فإن القلة هنا إنما هي في العدد فقط أما الكيف فإنه باق على ماله من قدر كبير باعتراف أهل العلم والفضل من العلماء والمؤرخين .
ومن النصوص التي تشير إلى قلة عدد أمثال أبي عبيد ما ذكره صاحب الإنباه :

(وقال أبو عبيدة : دفعت إلى جعفر بن سليمان أمثالا في الرقاع قيل لي : كم كانت ؟ قلت : أربعة عشر ألف مثل .. فانظر الى هذه السعة في الرواية وبين ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام فإنه لما اجتهد جاء بألف مثل) (٢) .

واني لأعجب لصاحب هذه الرواية وأتساءل كيف يتصور — إذا كان يذكر هذا على سبيل العقد — أن يكون أبو عبيد القاسم قد قلل من عدد أمثاله على سبيل العجز أو التقصير ؟ وهما محالان لأن أبا عبيدة كان من شيوخه ومن روى عنه بالإضافة إلى غيره من الشيوخ والأساتذة الآخرين ولو أراد القاسم أن يحوز كما كبيرا لما وجد حرجا في رواية ما ذكره أساتذته وشيوخه ،

(١) فصل المقال : مقدمة التحقيق ص ٤

(٢) إنباه الرواة ٣ / ٢٨٤

على أننا — من ناحية أخرى — نشك فيما ذكرته هذه الرواية من ذلك العدد إذ كيف يصح هذا مع ما قيل من أن المختصر المطبوع يضم وحده كما سبق ذكره ٨٢٠ مثلاً ؟

إن أبا عبيد كان رائداً حقاً ، في هذا الكتاب ولكن الحكم الحقيقي على عمله فيه محال أن يتم إلا بعد خروج هذا الكتاب إلى النور وافتشاره وتيسير دراسته للناس .

سادساً : كتب اللغة :

كان أبو عبيد لغوياً مشهوراً ورواية من أكبر رواة اللغة وقد أودع ثمرات فكره وعقله في كل الكتب التي صنفها في مختلف العلوم والفنون وقد كان حريصاً في كل ما كتب وألف وفي كل ما وضع على إشعار قارئه بأنه لغوي يحرف للغة قدرها وللعربية قيمتها ، ومن ثم فإنك لا تسكاد تقرأ له كتاباً إلا وتحس بتلك السمة اللغوية التي تدل على ذكاء أبي عبيد وما يتمتع به من قدرة لغوية فائقة .

وإن قارئ أبي عبيد أو دارسه يستطيع — من هذا الملاحظ — أن يصف كل ما ألفه بأنه لغوي ، وإن هذا الجانب الجدير بدراسة خاصة ، تتناول تلك السمة اللغوية وتبرز كل جوانبها فيما بقي من مؤلفات هذا الشيخ الجليل .

ومع هذا فقد كان لأبي عبيد جهود لغوية بحثة أو لغوية متصلة ببعض مصادر اللغة كالقرآن الكريم والحديث الشريف أو بعض مظاهرها اللهجية أو الدلالية وغيرها .

وهي جهود عرفها له معاصروه وأفاد منها الذين جاءوا بعده وما زالت إلى اليوم — على الرغم من أنها لم تزل حظها مطلقاً من التحقيق

والدراسة — منها عذبا لكل وارد من أبناء العربية الحريصين عليها .

أفتح أى معجم من المعاجم أو أى كتاب من كتب اللغة أو أى تفسير للقرآن الكريم أو الحديث الشريف فإنك ستجد دائما أمامك أبا عبيد راويا محققا أو موفقا .

ولقد بدا لى يوما أن أجمع ما فى المظهر للسيوطى من أقوال لى عبيد والنقول عنه فرأيت نفسى أمام قدر هائل من تلك الأقوال والنقول تشعرك بخطورة وعظمة هذا العالم الذى لم ير أهم كتبه النور بعد ، ولم يعرف العالم إلى اليوم شيئا عن أماكن أو معتقلات هذه الكتب النافعة المفيدة .

ولما كنت أعلم أنى لا أستطيع أن أبرز الشخصية اللغوية لى عبيد من خلال كتبه التى اطلعت عليها ، فى هذه العجالة فقد رأيت أن أخصص لبعضها وبخاصة للغريب المصنف وغريب الحديث دراستين مستقلتين ألم فىهما بما يستحقان من نظر وفحص ، وتعمق وتدقيق ، وأن أقتصر فى هذه العجالة باللمحات الأساسية التى تفصلها تلك الدراسة الخاصة التى أنهيت مسوداتها تقريرا بفضل الله .

وسيرى القارىء بإذن الله أنه لن يفوته بهذا الإنجاز هنا إلا ما فى التفصيل والإطناب فى مواقفهما من زيادة التأمل وحلاوة التحقق ، وكثرة التمثيل ، وبلاغة التدليل .

وما أجمل أن يأتى هذا كله بعد الإجمال والتعميم .

لقد نسبت إلى أبى عبيد كتب لغوية كثيرة .

وليسمح لنا القارىء بأن نبدأ بذكر بعض هذه الكتب التى لا تساعدنا المعلومات عنها بالوقوف طويلا عندها ، فهى إما ذاهبة فيما ذهب وإما باقية

منها أسماءها مع نص أخذه عالم منها قبل غيابها ولا نقول ضياعها . وقد
يثبت التحقيق العلبي أحيانا أن بعضها ربما كان راجعا إلى بعض آخر منها
أو أنه مما جاءته النسبة عن طريق الخطأ أو غفلة النساخ .

ومن هذه السكتب :

١ — كتاب المقصور والممدود :

ذكره صاحب الفهرست (١) في مؤلفات أبي عبيد وأشار إليه كثيرون
كالقحطى (٢) وغيره .

ويرجع هذه النسبة لأبي عبيد ما عرف عن تلك الفترة التي عاش فيها
من شيوع التأليف في هذا الفن الذي هو معنى بجمع الألفاظ التي تدخل
في دائرة ماسمونه بالمقصود والممدود .

فقد ألف فيه الفراء وهو أحد أساتذة أبي عبيد و كتابه محقق مطبوع
تحت عنوان المنقوص والممدود ، وقد ذكر المحقق سبب تسميته بهذا
الإسم مع أن السابقين يطلقون عليه تسمية المقصور والممدود وذلك أنه
قفا فيه الأصل (٣) .

وكذلك ينسب للأصمعي ، وللفضل به سلة ، وغيرهما كتب بهذه
التسمية .

(١) الفهرست ١١٢

(٢) إنباء الرواه ٢٢/٣

(٣) انظر : المنقوص والممدود للفراء تحقيق : عبد العزيز الميمنى

أما من ألفوا بعد أبي عبيد في هذا الموضوع فهم كثيرون من أشهرهم ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وابن خالويه سنة ٣٧٠ وابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧ وابن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وغيرهم كما يذكر صاحب كشف الظنون (١) .

وقد عثر على بعض هذه الكتب ، وتم طبع بعضها ، لكن أحدا لم يعثر بعد — على حسب علمنا — عن كتاب أبي عبيد ولعل الله يوفق في العثور عليه .

٢ — كتاب المذكر والمؤنث :

وقد ذكره ابن النديم في مؤلفات أبي عبيد (٢) والظاهر أن الآخرين من نسبوا إلى أبي عبيد مثل هذا الكتاب قد أخذوا ذلك عن ابن النديم .

وقد ألف في هذا الفن أيضا كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون (٣) .

وليس فيهم أحد من أساتذة أبي عبيد مما يوحى إذا صح بأسبقية شيخنا وريادته في هذا المجال .

وكما لم يعرف شيئا عن كتاب المقصور والممدود فإننا كذلك نجهل كل شيء عن هذا الكتاب الذي نرجو ألا يعد في كتبه المفقودة .

(١) أنظر أسماء هؤلاء المؤلفين في كشف الظنون ٣٠١/٢ .

(٢) الفهرست ١١٢ .

(٣) كشف الظنون ٢٩٩/٢ .

٣ — كتاب خلق الإنسان ونعوته :

وقد ذكر هذا الكتاب « بروكلمان »^(١) وأشار إلى أنه موجود بمكتبة طبقبو ٢٥٥٥ رقم ١ . والظاهر أن هذا الكتاب يمثل إحدى الرسائل المجموعة في مجلد واحد فقد علق « بروكلمان » على مكان وجود هذا الكتاب فقال : « حيث يظن أن بقية الرسائل في هذا المجلد مصنفات مختلفة من عمل المؤلف نفسه ولكن الراجح أنها كلها قسم من كتاب عريب المصنف كما يدل على ذلك الفهرست (٢) » .

ومع أننا لم نر هذا المجلد إلا أننا نستطيع القول بأن من المحتمل أن يكون كتاب خلق الإنسان كتاباً مستقلاً وليس جزءاً من الغريب المصنف الذي يضم فعلاً بين كتبه وأبوابه كتاباً بهذا العنوان ذلك أن التأليف في خلق الإنسان ونعوته كان شائعاً بين اللغويين فقد نسب إلى أبي مالك عمرو ابن كركرة ، والنضر بن شميل ٢٠٤ وقطرب ٢٠٦ وأبي عمرو الشيباني ٢٠٦ والمفضل بن سلامة ٢٠٨ وأبي عبيدة ٢١٠ والأصمعي ٢١٣ وأبي زيد الأنصاري ٢١٥ وغيرهم كتب بهذا الإسم كما نسب إلى أبي محمد ثابت بن أبي ثابت وراق أبي عبيد كتاب بهذا الإسم أيضاً .

وقد وصلت إلينا بعض هذه الكتب مثل كتاب الأصمعي ، وكتاب ثابت تلميذ أبي عبيد^(٣)

ولم يذكر الدكتور حسين نصار أياً عبيد بين المؤلفين للكتب المستقلة بهذا الموضوع وإن كان قد ذكره بين من عالجوا هذا الفن في مصنفاتهم .

(١) تاريخ الأدب العربي ١٥٨/٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٨/٣ .

(٣) أنظر : المعجم العربي ١٣٠/١٠٠ وما بعدها .

وهكذا يظل الأمر موقوفاً حتى يظهر الكتاب السابق المنسوب لأبي عبيد.

٤ — كتاب الأضداد والضد في اللغة :

ذكره ونسبه إلى أبي عبيد « بروكلمان » وأشار إلى وجوده بمكتبة
عاشرا فندي تحت رقم ٨٧٤ السليمانية أسطنبول (١).

ولم أر فيما أطلعت عليه من تراجم أبي عبيد من نسب إليه كتاباً في
الأضداد وإن كان أبو عبيد قد تناول هذه الظاهرة في غريبه المصنف، وأن
هناك من نقل عنه من مؤلفي الأضداد الذين جاءوا بعده .

فهناك في الغريب المصنف باب للأضداد أو كتاب كما جاء في نسخة
أخرى (٢) .

وفي كتاب ابن الأنباري وابن السكيت في الأضداد بعض نقول باسم
أبي عبيد فهل هي من ذلك الكتاب الخاص بالأضداد أو أنها من باب الأضداد
في الغريب المصنف ؟

لقد جاء نقل ابن الأنباري (٣) في حديثه عن كلمات منها : القره ، والنبل
والمغازة ، والملدوخ ، ومقتو ، ومثليهم . . الخ .

ولم أجد في باب الأضداد في الغريب المصنف أى كلام عنه سوى
لفظ الإقرار . ولعل في هذا ما يدل على أن هذا النقل كان من كتاب آخر
هو ذلك الذى ذكره « بروكلمان » خاصة أن التأليف في الأضداد كان شائعاً

(١) تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) أنظر الغريب المصنف نسخة تحت رقم ١٢١ لغة ص ٣٩٥ ونسخة
أخرى تونسية ص

(٣) أنظر : الأضداد في اللغة صفحات ٢٣، ٧٨، ٨٩، ٩٠، ١٠٣، ١١٧ .

بين لغوي ذلك العصر ، وقد وصل إلينا كتاب في الأضداد للأصمعي أستاذ أبي عبيد ، ونشره « هفنز » في بيروت سنة ١٩١٢ م .

ولعل كتاب أبي عبيد حبيساً في مكان ما ينتظر الإفراج عنه والنشر على أحر من الجمر .

هذا وقد نقل السيوطي في مظهره عن هذا الكتاب فقال :

« وفي كتاب الأضداد لأبي عبيد : تقول العرب ظلمة ظلماء ، وقطاني قطواء ، (١) وهذا يؤيد أنه رأى ذلك الكتاب .

هـ — كتاب النعم والبهايم والوحش والسباع والطير والهوام وحشرات الأرض :

ذكره بروكلمان وقال نشره بومجس ... وقال : وربما كان هذا أيضاً قسماً من كتاب غريب المصنف (٢) .

ومع أن ناشر هذا الكتاب قد نسبته إلى أبي عبيد فإن بعض الباحثين يرون نسبته إلى ابن قتيبة ويردون من يتشكك في هذه النسبة .

يقول الدكتور عبد الحميد سند (وقد شك الدكتور الحسيني في نسبة هذا الكتاب إلى ابن قتيبة ولكني أرجح صحة هذه النسبة لأنه يناقش الجاحظ ويخطئه في بعض الألفاظ على طريقته المهودة أضف إلى ذلك أنه طعمه ببعض الألفاظ الفارسية كعادته حين يتحدث عن أصل الكلمة أحياناً وحين يقارن بين اللفظين الفارسي والعربي) (٣) .

(١) المزهر ح ٢ ص ٢٤٩

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٨/٢

(٣) ابن قتيبة ، العالم الناقد الأديب ص ١٦٦

وقد ذكر باحث حديث في ابن قتيبة أن الدكتور الجبوري قد انتهى من دراسته لهذا الكتاب إلى نسبته لمؤلف عاش بعد ابن قتيبة .

وهكذا نرى حيرة هذا الكتاب واختلاف العلماء في نسبته بل واختلافهم في تقويمه فهذا الدكتور سنف يثنى عليه ويقول إنه كتاب مفيد جداً من الناحية اللغوية .

نرى الباحث السابق يقول ، و كتابه عبارة عن قصوص لغوية بمجموعة من كتب اللغة لا سمة لطابع التأليف فيه .

ويقتضى الانصاف أن أوجّل حكمي على هذا الكتاب حتى أطلع عليه ذلك أنه وإن كان مطبوعاً فهو في حكم المخطوطات .

وإلى أن نلتقي بصفحات هذا الكتاب فإنه يمكننا أن نطمئن قليلاً بقراءة ما أشار إليه الدكتور حسين نصار حيث يقول .

(كل هذه الأمور التي رأيناها في الغريب المصنف نراها بعبارتها في كتاب النعم والبهائم والوحش ... المنسوب لابن قتيبة ونشره الأب موريس بوج *pnouricepouges* ولا خلاف بينهما إلا في أن هذا حذف شواهد أنى عبيد وأسماء اللغويين والأعراب الذين ذكرهم وقد شك المحقق في نسبة الكتاب ورجح أنه ليس لابن قتيبة وأقام ترجيحه على أسباب وجيهة (١) .

٦ — كتاب فعل وأفعل .

وقد ذكره (بروكلمان) وأشار إلى أنه في القاهرة ثانياً (١) ٣ ، ٢٨١
كذلك أشار الدكتور حسين نصار إلى هذا الكتاب في حديثه عن
الكتب التي ألقت في هذا الموضوع حيث يقول ، (وكانت كتبه الأولى
تعالج صيغتي فعل وأفعل وتتناول هاتين الصيغتين من الفعل الواحد حين
تتفقان في المعنى أو تختلفان أو لا يرد للعرب إلا إحداهما وأول من روى
أنه ألف فيه قارب ٢٠٦ هـ ، والفراء (٢٠٧) هـ ثم أبو عبيدة (٢١٠)
والأصمعي ٢١٣ هـ ، وأبو زيد الأنصاري ٢١٥ هـ ، وأبو عبيد القاسم بن سلام
٢٢٤ هـ وورد في أبواب الفريب للمصنف أيضاً (٢) .

٧ — كتاب ما خالفت فيه العامة لغة العرب :

ذكره (بروكلمان) وأشار إلى أن صاحب لسان العرب قد نقل منه
بعض نصوصه في الجزء السابع / ٢٦٣ س ١٥ ويالمنظر في ذلك الموضوع
من لسان العرب نراه يقول : القاقوزة كالفازوزة وهي أعلى منها أعجمية
معربة قال أبو عبيد في كتاب ما خالفت فيه العامة لغات العرب هي قاقوزة
وقاقوزة التي تسمى قاقزة .

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز مطار هذا الكتاب ونقل النص السابق
عن لسان العرب ولاحظ الاختلاف اليسير في التسمية بين بروكلمان وما
ذكره بن منظور وأشار إلى أن الكتاب مفقود (٣) .

(١) تاريخ الأدب العربي ١٥٩/٢

(٢) المعجم العربي ج ١ ص ١٨٠

(٣) لحن العامة في الدراسات اللغوية الحديثة ص ٥٩

وتبدو الإشارات إلى هذا الكتاب شاحبة عند الدكتور حسين نصار
فهو لا يذكر حتى ذلك النص الذي أشار إليه بروكلمان (١) .

وكذلك فعل الدكتور محمد حسين آل ياسين فقد ذكر مؤلفات لحن
العامة بعد الكسائي وذكر المؤلفين فيها ومن بينهم كان أبو عبيد ثم قال :
« ولم يصل إلينا — فيما عدا — كتاب ابن السكت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ
منها شيء سوى نص واحد من كتاب الأصمعي نقله ابن يعيش لا تعنى شيئاً
في معرفة منهج الكتاب (٢) » .

٨ — كتاب النخل والكرم :

ولم نر أحداً من المؤرخين ينسب إلى أبي عبيد كتاباً بها الاسم غير
أن الناشر الثاني لهذا الكتاب ضمن مجموع البلغة في شذور اللغة بقول عن
نسبة الدكتور هفنز هذا الكتاب للأصمعي : « أما نسبة الدكتور هفنز
هذا الكتاب للأصمعي فهو على ما نظن على التغليب لأن نسختنا التي أخذت
عنها لا تصرح باسم الأصمعي ومن المحتمل أن يكون الكتاب لأبي عبيد
معاصر الأصمعي وقد توفي سنة ٢٢٤ للهجرة (٧٣٩م) وما يحملنا إلى نسبة
لأبي عبيد أن الشروح للمفردات يوافق ما جاء في لسان العرب والمخصص
لابن سيده منسوبا لأبي عبيد أكثر منها للأصمعي ، ومن المحتمل أن يكون
الكتاب لأبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمعي كما رواه عن أستاذه وعن أبي
عبيد فجمع بين روايتيهما ولذلك ترى اسمه في أول كتاب الكرم
والله أعلم (٣) .

(١) انظر : المعجم العربي . . ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) الدراسات اللغوية عند العرب ص ١٧٣ .

(٣) البلغة في شذور اللغة ص ٦٣ .

وفي هذا الكتاب عبارات تشبه ما في كتاب أو باب النخل في الغريب المصنف وبخاصة فيما وضع تحت هذا الاسم من الكتاب مما يجعلنا نرجح أن يكون هذا القسم من كلام أبي عبيد من كتاب خاص أو من كتابه الغريب المصنف ، وفي كتاب « التنبيهات على أغاليط الرواة » نص يشبه أيضاً ما في هذا الكتاب لكننا وجدناه كذلك في الغريب المصنف وهو قوله : وقال أبو عبيد (ب ٢٨٣) في كتاب النخل : فاذا قلعت الودية من أمها بكريها قيل دربه منقلة (وقال الطرمي غلط أبو عبيد في قوله بكريها إنما هو بكريه والقول قول الطوسي (١))

وربما أيد هذا كلامنا السابق وما ذهبنا إليه من ترجيح .

٩ — كتاب ما ورد في القرآن من لغات القبائل :

ويرى « بروكلمان » أن هذا لا يمثل كتاباً مستقلاً وأنه عبارة عن قائمة مأخوذة من كتاب أبي عبيد المنقود والمسمى : بغريب القرآن ، وقد طبعت هذه القائمة على هامش كتاب التيسير في علم التفسير لعبد العزيز بن محمد الديريني المتوفى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) المطبوع في القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ (٢) .

هذا ويرى الدكتور حسين فصار أن تلك الرسالة المطبوعة على هامش تفسير الجلالين المطبوع بدار إحياء الكتب العربية ليست إلا نسخة متهذبة ومزينة من الكتاب المنسوب إلى ابن عباس في هذا الموضوع كما يرى أن تلك الرسالة ليست لأبي عبيد القاسم بن سلام وإنما هي لراو

(١) التنبيهات ص ٢٣٩

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٩/٢

يسمى أبى القاسم بن سلام ، ولم يستطع معرفته ، وإن أكثر السيوطى من النقل عنه فى الإتيان مكتفياً بذكر كنيته دون اسمه (١).

وقد ذكر الدكتور صلاح المنجد فى مقدمة تحقيقه للكتاب المنسوب إلى ابن عباس أن «لغات القرآن موضوع جليل ذو شأن ، دنى به العلماء وأصل النظر فى اللغة منذ القرن الأول للهجرة وألفوا فيه فى القرن الثانى فكان من ألف منهم : الفراء ، وأبو زيد ، والأصمعى ، والهيثم بن عدى ، ومحمد بن يحيى القطيعى ويفكر ابن النديم أن ابن دريد ألف كتاباً فى لغات القرآن أيضاً وأنه لم يتمه (٢) .

وربما دفعنا هذا إلى القول بعدم استبعاد أن يكون لأبى عبيد رسالة فى هذا الموضوع وأن المقصود بأبى القاسم هو أبو عبيد إذا أخذنا فى الاعتبار إمكان سقوط لفظ عبيد أو زيادة لفظ « أبى » خاصة أنه قد عرف عن أبى عبيد العناية بالقرآن الكريم ودراسات وأنه قد نسبت إليه فيما يتصل بلغته آراء لا فكاد نجد لها فى أى من كتبه الأخرى وخاصة أن بعض العلماء وضع مكان أبى القاسم هذا فى نص ذكره السيوطى اسم أبى عبيد القاسم بن سلام كما سيأتى فى الحديث عن الغريب المصنف .

(١) المعجم العربى ج ١ ص ٧٤

(٢) كتاب اللغات فى القرآن : ص ٥

١٠ — كتاب الرجل والمنزل :

وقد نشره الأب لويس شيخو في مجموعة : البلغة في شذور اللغة من ص ١٢١ إلى ص ١٣٦ وذلك عن مجموع ينسب لابن قتيبة باهم : الجرائيم وقد رجح الأب نسبته إلى أبي عبيد نظراً لأنه لم يعرف لابن قتيبة كتاب بهذا الأسم ولأن معجم لسان العرب وكتاب المخصص لابن سيده يسكadan يذكران معظم مضامين هذا الكتاب متفرقة في مكانها وبحرفها الواحد وهما ينسبانها لأبي عبيد المتوفى سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) (١) .

ويرى الأب أن هذا الفصل من أجدى الأبواب نفعاً لأنه « يتضمن معظم المقررات التي يستعملها العرب في أسفارهم ومنازلهم فتفيدنا كثيراً من عاداتهم وأموالهم الأهلية (٢) » .

هذا ومن المعروف أنه ليس لأبي عبيد في الغريب المصنف باب خاص بهذا العنوان مما يرجح — إذا صح كلام الأب لويس — أن يكون له كتاب في هذا المعنى ، وبذلك العنوان .

(١) البلغة في شذور اللغة ص ١٢١

(٢) المرجع السابق ص ١٢١

١١ — كتاب أمالي أبي عبيد :

يقول السيوطي في المزهري : « وقال أبو عبيد في أماليه : حكى عن أبي عمرو بن العلاء أنه سئل عن قول امرئ القيس :

نظعنهم سلكي ومخلوجة
كرك لأمين على فابل

فقال : قد ذهب من يحسنه ، (١) .

ويهمنا من هذه العبارة ذكره أن لأبي عبيد أمالي وما يبدو من نقله عنها أنه رآها .

وقد نسبت الأمالي لكثير من العلماء وطبع كثير منها مثل أمالي القالي ، وأمالي الشريف المرتضى ، وأمالي ثعلب ، وأمالي السهيلي ولم نر أحداً نسب لأبي عبيد أمالي سوى السيوطي .

والظاهر أنها قد ذهبت فيما ذهب من كتبه المفقودة .

١٢ — كتاب الأجناس :

ويسميه بعضهم : « الأجناس من كلام العرب ، وما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى » وقد ذكره بروكلمان وأشار إلى نسخته ونشره (٢) .

ومن هذا الكتاب عدة نسخ مخطوطة بعضها موجود بدار الكتب المصرية

(١) المزهري ح ٢ ص ٣٢٣

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٦/٢

ضمن مجموع تحت رقم (٢٣٤) مجاميع ، وقد طبع بالهند سنة ١٩٣٨ م
١٣٥٦ هـ ، تصحيح أمتاز عرشي « وهو كتيب صغير يشتمل على نحو ٣٠٠
كلمة كلها مقتبسة من كتاب أبي عبيد نفسه المسمى بالغريب المصنف والذي
لا يزال مخطوطاً حتى الآن ، .

هذا ما يقوله عنه الدكتور إبراهيم أنيس (١) ، لكن صاحب تذكرة
النوادير يرى أن هذه الكلمات مأخوذة من كتاب غريب الحديث للمؤلف
نفسه (٢) .

وهذه الكلمات كلها تمثل ما يعرف بالمشتراك في الدراسات اللغوية ومن
أمثلتها :

« البيظ : القشر الرقيق الذي يكون داخل قشرة البيضة ، والبيظ ماء
قليل يكون في النقرة ، التي تكون في أسفل البئر ، والبيظ : خيال الوجه
في السيف ، والبيظ : يبط النمل ، والبيظ : ماء الرجل) .

السكرتوم : السكرتوم للسر ، والسكرتوم الليل ، والسكرتوم الغاقة القليلة الرغام
والسكرتوم الهذم ، والسكرتوم الشراب يذهب بالعقل ، والسكرتوم : الثلج يستر
الأرض ، وكل شيء ستر شيئاً فقد كتمه .

الجنان الليل وإنما سمي جناناً لأنه يحن كل شيء بظلمته ، والجنان الفؤاد ،
إنما سمي جناناً لأنه يحن السر ، والجنان : الترس ، وإنما سمي جناناً لأنه
جنة من السيف والرح والجنان الثوب الأعلى على الثياب) .

ويرى الدكتور زغلول سلام أن أبا عبيد لم يفرد كتاباً للأجناس وأن

(١) دلالة الألفاظ / ٢١٤

(٢) مذكرة النوادر / ١٠٧

هذا الكتاب (استخرجه المتأخرون أو بعض تلاميذه من كتابه في غريب الحديث . .) .

كما يرى أن أبا عبيد يحاول أن يعالج التعدد في معاني اللفظ فيمهد للبحث في الإشتقاق (١) .

أما الدكتور إبراهيم أنيس فإنه يرى أن الباحث يستطيع استبعاد عدد كبير من تلك الألفاظ المشتركة (لأنها لا تعدو أن تكون من أمثلة التطور الدلالي بين دلالة حقيقية وأخرى مجازية فهو مثلاً يعد كلمة (الجنان) من المشترك اللفظي لأنها تعبر عن دلالات أربع هي الليل ، والفؤاد ، والترس ، والثوب الأعلى على الثياب . .) ثم يستغرب تعليل أبي عبيد وذكره السر في هذه الدلالات المختلفة ثم يقول : (فهو إذن يتجاهل النسب المختلفة في شيوخ الدلالات ويتجاهل فوق هذا أن المشترك اللفظي في صورته الصحيحة لا يتصور إلا حيث تنقطع الصلة بين الداليتين كالحال حين يعبر عن الوشم في الوجه وعن أخ الأم مثلاً) (٢) .

وهكذا يرى كل من الدكتورين في عمل أبي عبيد أمراً يختلف عما رآه الآخر ، تبعاً لموضوع كل منهما ومنهجه .

ويلاحظ أنهما يختلفان أيضاً في المصدر الذي أخذ منه هذا الكتاب إذ يرى الدكتور أنيس أنه مأخوذ من الغريب المصنف على حين يرى الدكتور زغلول أنه مأخوذ من غريب الحديث .

ولعل من العجيب أن لأبي عبيد في الغريب المصنف كتاباً سماه (كتاب

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي / ١٩١

(٢) دلالة الألفاظ ٢٢١

الأجناس) وهو يختلف في موضوعه ومنهجه عن ذلك الكتاب الذي هو معنى فقط بالألفاظ المشتركة على النحو السابق .

١٣ - كتاب في النحو :

كان أبو عبيد لغوياً نحوياً ولكن الظاهر أنه اشتهر أكثر باللغة وأن أكثر مؤلفاته اللغوية كان فيها ومن ثم فإننا لانسكاد نعترفاً أصلعنا عليه على كتاب له في النحو وإن كنا نلتقي كثيراً ببعض أفكاره النحوية في تلك الكتب اللغوية والأدبية التي عكف عليها ووقف على الإبداع فيها معظم حياته ، كذلك لانعدم مثل هذه الآراء والأفكار في كتبه الأخرى على نحن ما أشرنا إليه سابقاً في الحديث عن آثاره في كتب الفقه والدراسات القرآنية وغيرها .

ومع هذا فإننا نستطيع القول بأن هذا العالم الواسع الثقافة لم يترك ميدان النحو دون مشاركة تأليفية فيه وأنه لم يكن ناقص العلم بالإعراب على نحو ما يزعم أبو الطيب اللغوي ومن اتبعه في هذا الرأي العجيب (١) .

والذي يؤيدنا في هذا — إلى جانب ما يراه القارىء في كتبه السابقة أننا كدنا من وجود كتاب له على الأقل في النحو ذكره الإمام اللغوي أبو منصور الأزهري ونقل منه في موسوعته الكبيرة المعروفة بالتهذيب أو تهذيب اللغة .

يقول رحمه الله : أبو عبيد عن الكسائي : يقول فقدك الله مثل نشدتك الله ، وقال أيضاً فقدك الله أى الله معك وأنشد :

(١) أنظر مراقب النحويين ٩٣

قعيد كما الله الذي أتتاله
ألم تسمعاً بالبيتقتين المنادفا
قال وأنشد غيره عن قرية الأعرابية :
فعيدك عمر الله يا بنت مسالك
ألم تعليننا مأوى المعصب
قال : ولم أسمع بيتاً أجمع فيه العمر والقعيد إلا هذا ، قال وقال
الأصمعي : قصيدك لا أفعل ذاك وقصيدك وقال متمم .
قعيدك ألا تسمعيني ملامة
ولا تنكئي فرح الفؤاد فيجعا
وقال أبو عبيد أيضاً في كتابه في النحو : عليا مضر تقول : قصيدك
لتفعلن كذا قال : القعيد الأب (١) .
هذا وما زال ذلك الكتاب مغموراً لا يعرف أحد عنه شيئاً مما يرجح
فقدانه منذ وقت بعيد .

١٤ — كتاب الإيضاح :

ذكره «بروكلمان» وذكر أنه مخطوط باق في مكتبة فاس أول (القرويين)
١١٨٣ ولم يبين لنا شيئاً عن موضوعه ، ولم يتهياً لي بعد الإطلاع عليه ،
وقد وضعته في كتب اللغة بغلبة الظن حيث إن بعض الكتب اللغوية
أو النحوية تحمل هذا الاسم وقد كان من عادة القدماء المتابعه والإقتداء
في أسماء الكتب والمصنفات ويظن أمر هذا الكتاب وحقيقة نسبه
في موضع التوقف حتى نقف عليه إن شاء الله .

١٥ — كتاب استدراك الغلط :

ذكره السيد مرتضى الزبيدي في مقدمة : تاج العروس (١) ، وذلك ضمن مراجعه التي أتممت عليها ولم أره — حتى الآن — عند أحد غيره وقد أغفل الدكتور حسين نصار في حديثه عن مراجع تاج العروس (٢) ، ذكر هذا الكتاب كما يلاحظ أنه نسب الكتابين الآخرين السابقين : أنساب العرب ، وأنساب الخيل إلى أبي عبيدة ولعل هذا من تحريفات النسخ أو من أخطاء الطباعة ولم تعلمت وما زالت تفعل بنا تلك التحريفات وهذه الأخطاء حيث لا يفرق بين أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي عبيد القاسم ابن سلام عند الإكتفاء بالكسنية إلا وجود تلك التاء أو عدم وجودها .

هذا ولم يبين لنا صاحب التاج موضوع هذا ولا أى غلط قد استدرك .

ومما يزيد الأمر غموضاً أن هناك بعض كتب لغوية تحمل هذا الاسم أو شبهه لكنها لا تنسب إلى أى من الشيخين السابقين .

لكن صاحب التاج يؤكّد تلك النسبة للكتب الثلاثة بقوله : وكتاب أنساب الخيل وأنساب العرب ، واستدراك الغلط الثلاثة لأبي عبيد القاسم بن سلام .

(١) تاج العروس ج ٤

(٢) المعجم العربي ج ٢ ص ٦٤١

١٦ - كتاب غريب الحديث :

موسوعة علمية لغوية نسبت إلى أبي عبيد ورويت عنه باسم (غريب الحديث) كما هو عند الأكثر، أو باسم (شرح غريب الحديث) أو (المستند) كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، وقد تسمى أحياناً بغريب أبي عبيد فيحدث ثمة لبس بينها وبين الموسوعة العلمية اللغوية الأخرى التي قدمها أبو عبيد باسم (الغريب المصنف) التي كان للرواة أيضاً في تسميتها ضرب من الاختلاف ربما عرضنا له فيما يستقبل .

وقد أشار النووي إلى اختلافهم في أسماء الكتب فقال :

(قلت نجد الاختلاف في أسماء مصنفات المتقدمين كثيراً ، وهذا الاختلاف نشأ من جامعها وكتابها ، مثلاً : المصنف لابن أبي شيبة كان يسمى بالمستند كما ذكره ابن النديم ، وغريب الحديث لأبي عبيد كان يسمى أيضاً بالمستند كما تقدم ، وكذلك الصحيح لابن حبان المذکور كان يعرف بكتاب الأنواع والتقايم) (١) .

وقد وثقت هذه النسبة كل أقوال من أرخوا لأبي عبيد ، وكان على رأسهم في هذا ابن النديم ، والزبيدي ، والبغدادی ، والقفطی ، وابن خلکان ، والنووی ، والسبکی ، وابن الأثير ، وحاجي خليفة ، والزركلي وإن خلط بين غريب الحديث والغريب المصنف فيما يبدو ، وبروكلان ، وجرجي زيدان وغيرهم .

وقد أكد السابقون في حديثهم بذكر روايات النسبة أو الأخذ عنه والسماع له ، بينما أكد المحدثون أقوالهم بالإشارة إلى وجود هذا الكتاب

وإلى ما سلم لنا من مخطوطاته ونسخه ، قبل أن تبرز حروفه وكلماته آلات الطباعة في السنوات الأخيرة .

وقد أراد بعضهم أن يجعل من سماع هذا الكتاب وروايته دليلاً على قيمته العلمية وشرفه فكانوا حريصين على بيان أن أول من سمعه أو كتبه أو قرأ عليه قوم هم أئمة عصرهم ، وشيوخ زمانهم ، بل إن منهم من امتدت راية إمامته ، ومظلة ريادته إلى عصرنا وإلى كل العصور التي يأذن الله بها إلى يوم الدين .

فقد ذكر البغدادى فى تاريخ بغداد ، والقفطى فى إنباه الرواه نقلاً عن معاصرى أبى عبيد أن أول من سمع هذا الكتاب إلهو يحيى بن معين وأن أول من كتبه هو الإمام أحمد بن حنبل .

يقول القفطى : « وأول من سمع هذا الكتاب من أبى عبيد يحيى بن معين ، وعرض هذا الكتاب على أحمد بن حنبل فاستحسنه وقال : جزاه الله خيراً ، وكتب أحمد كتاب غريب الحديث الذى ألفه أبو عبيد أولاً ، (١) .

ويذكر رواية أخرى فيقول : وقال جعفر بن محمد بن على المدينى سمعت أبى يقول : خرج أبى إلى أحمد بن حنبل يعودده وأنا معه قال : فدخل عليه وعنده يحيى بن معين وذكر جماعة من المحدثين . قال : فدخل أبو عبيد القاسم بن سلام ، فقال له يحيى بن معين : إقرأ علينا كتابك الذى عملته للناس فى غريب الحديث ، فقال : ها توه فجاءوا به ، فأخذه أبو عبيد فجعل يبدأ بقراءة الأسانيد ، ويدع تفسير الغريب ، قال : فقال له أبى : يا أبا عبيد دعنا من الأسانيد نحن أحقق بها منك ، فقال يحيى بن معين لعلى بن المدينى : دعه يقرأ على الوجه ، فإن لبنك محمداً معك ونحن نحتاج

إلى أن نسمعه على الوجه ، فقال أبو عبيد : ما قرأته إلا على المأمون ،
فإن أحببت أن تقرموه فاقرموه ، قال : فقال له علي بن المديني إن قرأته
علينا أولى وإلا فلا حاجة لنا فيه — ولم يعرف أبو عبيد علي بن المديني —
فقال ليحيى بن معين : من هذا ؟ قال هذا علي بن المديني ، فالتزمه وقرأه
علينا . فمن حضر ذلك المجلس جاز أن يقول : حدثنا وغير ذلك
فلا يقول (١) .

وهكذا تم السماع الأول ، والقراءة الأولى على أهل العلم والشرف
من عصابة الخير التي بدأت بأمر المؤمنين العالم ، وانتهت بتلك السكوكية
من علماء الحديث والفقه .

ولم يحرم من ذلك — فيما بعد — كل تلاميذ أبي عبيد وفي مقدمتهم
تلميذه النجيب وراوييه الأول علي بن عبد العزيز .

وما كان أبو عبيد ليبخل بهذا الكتاب على العلماء ، وطلاب العلم وإن
تكبر به على أهل الدنيا وأرباب الحكم والسياسة .

فقد كان يأتي للعلماء في دورهم على نحو ما رأينا ولا يأتي الأمراء إذا
دعوه لذلك ، فقد ذكروا أن طاهر بن عبد الله كان يود أن يأتيه أبو عبيد
ليسمع منه كتاب « غريب الحديث » في منزله ، فلم يفعل لإجلال الحديث
رسول الله ﷺ فكان هو يأتيه ، وقدم علي بن المديني وعباس العنبري
فأراد أن يسمعا « غريب الحديث » فكان يحمل كل يوم كتابه ويأتيهما
في منزلهما فيحدثهما فيه لإجلال لعلمهما . يقول الراوى : « وهذه شيمة
شريفة رحم الله أبا عبيد » (٢) .

(١) إنباه الرواه ١٧/٣ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ١٧/٣ .

وعن هؤلاء الأعلام وغيرهم من تلامذة أبي عبيد سارت رواية هذا السفر الجميل تنتقل من جيل إلى جيل ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الأعلام الذين قرأوا أو سمعوا أو كتبوا غريب الحديث لأبي عبيد . ونحن لا نستطيع أن نحصى كل هؤلاء ، وليس من منهجنا هنا ذلك ، وإنما هي أسماء نذكرها للعلم والتاريخ .

لقد روى الأزهري أبو منصور هذا الكتاب ، وحصله كما ذكر وكما نرى في معجده « تهذيب اللغة » من أهم مصادره ووصفه بالتبيل والشرف (١) . وذكر ابن خبير الإشبيلي في فهرسته طرقا عديدة لروايته غريب الحديث (٢) .

ومن الأعلام الذين كانوا يروونه ويحفظون سنده الشاعر المعروف أبو العلاء الأحرى (٣) .

ومنهم ابن الوزان فقد قرأ على ابن عيرون شرح غريب الحديث لأبي عبيد كما يقول الزبيدي (٤) .

وكان من آثار تلك الرواية والإقبال على حفظ هذا الأثر المهم وكتابته أن وصلت إلينا عدة نسخ مخطوطة منه بعضها قريب العهد جدا بمؤلفه . فقد ذكر « بروكلمان » (٥) أن في مكتبة الأزهر بمصر أقدم نسخة من

(١) تهذيب اللغة ٢٠/١ .

(٢) فهرسة ما رواه عن شيوخة / ١٨٦ .

(٣) أنباه الرواة ٦٩/١ .

(٤) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٦٩ .

(٥) تاريخ الأدب العربي ١٥٦/٢ .

هذا الكتاب ، فقد كتبت سنة ١٣١١ هـ ١٩٢٣ م وأحالنا إلى مجلة المجمع العلمي العربي ١٣/٤٠٦ وفيها تقرأ عن زيارة سمو الأمير سعود لمكتبه الأزهر ما نصه : « ووقف على كتاب خط يعتبر من أئمن الكتب العربية في العالم ، ولا توجد منه في مصر غير نسخة واحدة في هذه المكتبة وهو كتاب غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣ هـ .

وهذا الكتاب مخطوط بقلم شرقي بخط أبي الخطاب الحسيني ومكتوب في سنة ٣١١ هـ » (١) .

وقد حاولت رؤية هذه النسخة ، فلم يقبل المسئولون وقدمت إلى نسخة منقولة منها ، ذات خط حسن مضبوط ، وذلك حفاظا — كما قيل يومها على تلك النسخة القديمة النادرة .

كما ذكر « بروكلمان » أن هناك نسخا أخرى من الكتاب في ليدن ، وكوبريلى ، ورامبور ، ومكتبة شيخ الإسلام ، والمكتبة السندية وأشار إلى أنه تقرر نشره في حيدر أباد في برنامج سنة ١٣٥٤ (٢) رقم ٥ .

وقد نشر الكتاب فعلا في أربعة مجلدات ، وذكر الناشر أنه سيتلوها غيرها بالفهارس والملاحق المطلوبة ، وتم تصحيحه عن أربع نسخ وصفها القائم بالتصحيح ، وكانت المفاجأة في هذا تأتي فيما ذكره هذا المصحح من أن نسخة « ليدن » أقدم من نسخة الجامع الأزهر ، فقد وجد بآخرها ما لفظه :

« آخر الكتاب صلى الله على محمد وسلم كثيرا ، فرغ منه في ذى القعدة سنة ثنتين وخمسين ومائتين (١) » .

(١) مجلة المجمع العلمي العربي س ١٣ م ١٣/١٩٣٣ ص ٤٠٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٦/٢ .

(٣) غريب الحديث : المقدمة ص يو .

فهى إذن كما يقول المصحح : « أقدم نسخة وصلت إلينا لأنها كتبت بعد ثمان وعشرين سنة فقط من وفاة المؤلف » وقد ذكر المصحح أنها مشوشة وغير مرقبة (١) .

ومما لا شك فيه أن نشر هذا الكتاب يعد كسبا ضخما لعلوم اللغة والحديث ، وإن كانت تلك النشرة ما تزال فى حاجة إلى جهود أخرى كبيرة ، تظهر هذا الكنز على وجهه ، وتبرز ما فيه من درر وجواهر .

وعندما تتأكد النسبة والرواية والكتابة والنشر فإن من حق القارىء أن يتساءل عن موضوع هذا الكتاب ، وعن منهجه ، وعن تاريخ تأليفه وكيفية وظروفه ، وعن مصادره ؟ وعن أهميته وأثره ؟ وعما دار حوله من دراسات ؟ وعن غير ذلك مما يتصل بمادته وما يحويه من ضروب العلم وألوان الثقافة المختلفة . . ؟ .

ولست أدعى — وقد قرأت أكثر هذا الكتاب مخطوطا — قبل أن أحصل عليه مطبوعا — أننى أستطيع توفية كل هذه النقاط فى غير بحث مستقل بهذا الكتاب .

والكنى — بالطبع — أستطيع بمعونة الله أن أقدم فى هذا ما يناسب المقام ، ويشفى الأوام .

إن موضوع هذا الكتاب هو الألفاظ الغريبة التى وردت فى أحاديث النبي ﷺ وآثار صحابته وتابعيه .

والهدف هو جمعها وتفسيرها وتوضيحها .

واللفظ الغريب كما يقول الخطابي: هو الغامض البعيد من الفهم كالغريب من الناس وقال: إن الغريب من مكلام يستعمل على وجهين:

« أحدهما أن يراد أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناول به الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر والوجه الآخر أن يراد به كلام من بعدت به الدار ونأى به المحل من شواذ قبائل العرب فإذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استقر بنا، (١).

وقد أرجع الخطابي وجود الغرابة في حديث رسول الله ﷺ إلى ما يأتي:

— كثرة المواطن والموضوعات التي يتحدث فيها النبي ﷺ واختلاف عباراته، وتكرر بيانه، وحفظ الصحابة لكل ما يصدر عنه في الموضوع الواحد فيجمع لذلك في القضية الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنى واحد.

— تنوع صور تأدية ما يسمع منه ﷺ بتنوع لغات وألسنة المستمعين « فيجمع في الحديث الواحد إذا انشعبت طرقة عدة ألفاظ مختلفة موجبها شيء واحد.

وقد أرجع ابن الأثير نشأة الغرابة إلى عامل الجهل بلغة الحديث في عهد النبي ﷺ، وفي عصر الصحابة، وتحول اللسان بعد عصرهم أعجمياً « فصرف العلماء طرفاً من عنايتهم فألفوا في حراسة هذا العلم (٢).

(١) كشف الظنون ١٥٥/٢

(٢) أفظر مقدمة غريب الحديث ج ١ ص ١ وأنظر مقدمة النهاية ٤/١

ولست أرى تناقضا بين ما رآه الخطابي وما رآه ابن الأثير فكلما
العاملين أو كل العوامل تشترك في إختفاء لون من الاستغراب على جزء من
ذلك الكلام المروى عن رسول الله ﷺ وعن صحابته وتابعيه ، وتلك
طبيعة التطور تجعل معروف اليوم مجهولا في الغد ، واللغة أصلا لا يحيط
بها إلا نبي كما يروى عن الشافعي رضي الله عنه .

فإذا ما أحس المجتمع اللغوي بهذه الغرابة ، أو بعدم الوضوح النسبي ،
فعليه أن يبادر بالشرح والترصيح ، ويكون ذلك محتوما إذا كان النص
المستغرب من كتاب الله أو من حديث رسول الله ﷺ .

وهذا ما فعله علماء العربية خدمة لكتاب الله وسنة رسوله عليه
السلام .

وهذا ما فعله أبو عبيد ، وما قضى فيه خلاصة عمره كما يقول : « إني
جمعت كتابي هذا في أربعين سنة وهو كان خلاصة عمري » (١) .

وفي عبارة أخرى فراه يقول : مكثت في تصنيف هذا الكتاب أربعين
سنة ، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في موضعها من
الكتاب فأبيت ساهرا فرحا مني بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي
أربعة أو خمسة أشهر فيقول : قد أقت كثير (٢) .

ويا لها من عبارة قيمة تبين لنا مدة تأليف هذا الكتاب وترشدنا إلى
طريقة هذا التأليف ، وتوضح لنا مصادره .

(١) النهاية لابن الأثير ص ٦

(٢) وفيات الأعيان ٢٢٥/٣

فالظاهر أن أبا عبيد كان يقسم كتابه على النحو الذي نراه على أساس المسافيد ، ثم يضع أحاديث كل مسند ، ثم يبحث بعد ذلك عن الغريب في كل حديث .

فإذا ما وضع يده عليه بحث عن معناه . وما يوضحه ويزيل غرابته ، فإذا ما هيا الله له ذلك من أفواه العلماء أسرع إلى كتابه فسجله في مكانه منه ، وتلك طريقة رائعة متأنية في التأليف وهي تعد اليوم من أحدث ما ينادى به المنهج التأليفى في عصرنا الحاضر .

إن أربعين سنة بهذا المنهج تعد فترة خصبة لإخراج مثل هذا العمل .

وهى ترد - إلى جانب كيفية التأليف - على من زعموا إعتقاد شيخنا على كتاب أو كتب سابقة ، فالذى يعتمد أو ينتزع من الكتب السابقة لا يقضى أربعين سنة فى مثل هذا العمل .

وكان الله لأبى الطيب اللغوى عندما يريد الخط من قدر أبى عبيد فيقول : « وأما كتابه فى غريب الحديث . فإنه اعتمد فيه على كتاب أبى عبيدة معمر ابن المثنى فى غريب الحديث (١) » .

ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن كتاب معمر بن المثنى ؟ وهل يصلح حقا أن يكون معتمدا لهذا السفر العظيم ؟ بل إننا لنتساؤل عن غيره من الكتب التى سبقت أبا عبيد وعن أثرها بالنسبة لعمله .

لقد ذكر المؤرخون لعلم غريب الحديث أن الكتب التى سبقت أبا عبيد كانت على النحو التالى :

١ - كتاب غريب الحديث لأبي عثمان عبد الرحمن بن عبد الأعلى
وكان معاصراً لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وقد وصف كتابه بأنه ليس
بالكبير (١) .

ولم يذكر أحد أن أبا عبيد قد أخذ عنه .

٢ - كتاب غريب الحديث لأبي عبيدة معمر بن المثنى وقد وصف
ابن الأثير هذا الكتاب بأنه صغير ذو أوراق معدودات (٢) فهل يعقل
إعتماد أبي عبيد عليه ؛ إن الدكتور حسين نصار يعلق على هذا بقوله وهو
قول لا يمكن تصديقه لضخامة كتاب أبي عبيد ووصف المؤرخين كتاب
أبي عبيدة بالقلة المفرطة ، (٣) .

٣ - كتاب غريب الحديث للنضر بن شميل وقد وصفه ابن الأثير
أيضاً بالصغر ولطف الحجم (٤) ولم يزعم أحد أن أبا عبيد قد اعتمد
عليه .

وقد نسبت كتب في غريب الحديث أيضاً إلى قطرب ، والأصمعي ،
وأبي زيد الأنصاري ، وسلمة بن عاصم الكوفي .

ولكن هذه الكتب وصفت جميعاً بما وصف به كتاب أبي عبيدة معمر
ابن المثنى من الصغر وقلة الخطر .

ولذلك يقول ابن الأثير : « واستمرت الحال إلى زمن أبي عبيد القاسم
ابن سلام وذلك بعد المائتين فجمع كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار

(١) المعجم العربي ٥٠/١ وما بعدها

(٢) النهاية ٥/١

(٣) المعجم العربي ٥٣/١

(٤) النهاية في غريب الحديث والآثار ٦/١

الذي صار . وإن كان أخيرا - أولا لما حواه من الأحاديث والآثار الكثيرة والمعاني اللطيفة والفوائد الجمة فصار هو القدوة في هذا الشأن فإنه أفنى فيه عمره وأطاب به ذكره حتى لقد قال فيما يروى عنه : إني جمعت كتابي هذا في أربعين سنة وهو كان خلاصة عمري .

ولقد صدق رحمه الله فإنه احتاج إلى تتبع أحاديث رسول الله ﷺ على كثرتها وآثار الصحابة والتابعين على تفرقها وتعددتها حتى جمع منها ما احتاج إلى بيانه بطرق أسانيدها ، وحفظ روايتها ، وهذا فن عزيز شريف لا يوفق له إلا السعداء (١) .

فهل يمكن القول بعد ذلك إلا أن أبا عبيد كما ذكر كثير من المؤرخين هو صاحب هذا الفن ورائده وصاحب السبق والأولية فيه .

لقد كانت مصادر أبي عبيد في الأحاديث هم شيوخه الذين أخذ عنهم وسمع منهم ، أما في اللغة فإن الناظر في الكتاب يرى أنه يروي أيضا عن شيوخه الذين ثبت اتصاله بهم وسماعه منهم كالأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عمرو الشيباني ، والكسائي ، وغيرهم .

وعلى الرغم من كثرة الروايات ، ونسبة كل قول إلى صاحبه كما هو شأن أبي عبيد في كل مصنفاته فإن شخصية أبي عبيد تظهر واضحة بما يضيف ، وبما يوفق ، وبما ينقد .

ويمكننا إيجاز منهج أبي عبيد هنا فيما يأتي :

١ - ذكر الحديث ، ثم ذكر سنده وإن كانت بعض النسخ لا تذكر السند مما جعل بعضهم يتشكك في كونها ممثلة للكتاب ويرى أنها تمثل أحد

مختصراته ، ولقد أخبرني بهذا أستاذي المحقق الأستاذ السيد أحمد صقر
عندما عرضت عليه المخطوطة التي (١) حصلت عليها وقرأ على بعض
الأحاديث بإسنادها على أنها منقولة من غريب الحديث لأنى عبيد ولم
يخبرني يوماً عن مصدره ، وربما أيد هذا ما سبق أن نقلناه في موضوع
قراءة الكتاب على يحيى بن معين وأحمد بن حنبل .

ومن الملاحظ أن النسخة المطبوعة لا يذكر فيها هذا السند وأن المصحح
ينقل ذلك عن نسخة أخرى ويضعه في هامش الصفحات .

٣ — شرح اللفظ أو الألفاظ الغريبة في الحديث ببيان معناه وإيراد
بعض مشتقاته .

٣ — إلهام شهادة على ما سبق بالشعر ، والقرآن الكريم ، وبعض
الأحاديث الأخرى .

٤ — نسبة الأقوال إلى أصحابها .

٥ — الموازنة أحياناً بين الأقوال وترجيح بعضها على بعض .

٦ — التعرض لبعض الفقهيات ، والبلاغيات ، وغيرها من ألوان
العلوم . وإثارة لمنهج جيد يستحق ما وصفه به ابن الأثير من أنه قد تميز
بصفات هي :

« بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط ، وكثرة الفقه (٢) ،
وإثارة لمنهج جيد يستحق ما وصفه به ابن الأثير من أنه قد تميز
وأن يقال عن عقل صاحبه « إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا

(١) وهي مصورة عن نسخة كوبريلي ٤٥٥

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثير ج ١ ص ٧

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٢٢٦

الكتاب لتحقيق ألا يحوج إلى طلب المعاش ، وهذه عبارة عبد الله بن طاهر عندما عرض عليه هذا الكتاب وقد أتبعها بإجراء عشرة آلاف درهم لأبي عبيد في كل شهر حتى يتفرغ ذلك العقل للعلم والابداع (١) .

ولقد انتفع الناس بهذا الكتاب ايما انتفاع وظهرت له آثار عديدة ودارت حوله دراسات مختلفة .

وكان أول أثر لهذا الكتاب يتمثل في اتخاذه قدوة إذ فتح الله به بابا من العلم ولجّه كثيرون من بعد أبي عبيد مثل ابن قتيبة ، وإبراهيم ابن اسحق الحارثي ، وشجر بن حمدويه ، وأبي العباس ثعلب ، وأبي العباس المبرد ، وأبي بكر الانباري ، وأحمد بن حسن الكندي ، وأبي عمرو محمد ابن عبيد الواحد صاحب ثعلب ، وأبي سليمان الخطابي الذي أثنى كثيرا على كتاب أبي عبيد وغيرهم كالزمخشري ، وابن الأثير والسيوطي صاحب التذييل (٢) وغيرهم من أهل العلم والفضل (٣) .

وقد أفاد منه فائدة كبرى أصحاب المعاجم التي ألفت بعده وقد صرح بهذا كثيرون منهم كالأزهري الذي يقول عنه : ولأبي عبيد من الكتب الشريفة كتاب غريب الحديث قرأته من أوله إلى آخره ، على أبي محمد عبد الله بن محمد ابن هاجك (٤) ... » .

ويقول أيضا : « فما كان في كتابي لأبي عبيد عنه في غريب الحديث

(١) إنباه الرواة ٣ / ١٦

(٢) انظر : التذييل والتفنيب على نهاية الغريب

(٣) انظر : مقدمة النهاية لابن الأثير وانظر : المعجم العربي ح ١ ص ٥٠

وما بعدها

(٤) تهذيب اللغة ح ١ ص ١٤

فهو مما حدثني به عبد الله بن هاجك عن ابن جيلة عن أبي عبيد (١) ، وفي التهذيب ترى نقولا كثيرة من غريب الحديث لأبي عبيد خاصة إن الأزهرى كان معروفاً بالانجاة الديني في مصنفاته .

و كذلك ابن فارس الذى يقول فى مقدمة مقاييسه ذاكرا مراجعه « ومنها كتابا أبى عبيد فى غريب الحديث و « مصنف الغريب » حدثنا بهما على بن عبد العزيز عن أبى عبيد (٢) .

وقد دارت حوله كتب ودراسات عديدة تعرض بعضها لنقصه أو الرد عليه .

وأشهر هذه الكتب كتاب إصلاح الغلط أو إصلاح غلط أبى عبيد فى غريب الحديث لابن قتيبة الذى شرحه أيضا أبو المظفر محمد بن آدم المتوفى سنة ٤١٤ هـ (٣) .

ومن إصلاح الغلط نسخة بأبا صوفيا تحت رقم ٤٥٧ ذكرها (٤) بركمان ونسخه أخرى بالمسكينة الظاهرية بدمشق (٥) وقد امتلكت مصورة عن النسخة الاولى عن طريق صورتها بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة . وقد نشر هذا الكتاب الاستاذ الفرنسى حيراد لو كنت فى مجلة كلية القديس يوسف ببيروت سنة ١٩٦٨ (٦) .

(١) المرجع السابق ص ١٤

(٢) مقاييس اللغة ١ / ٤

(٣) ذكره محقق إنباه الرواة نقلا عن كشف الظنون . الانباه ١٤٤/٢

والكشف ١١٢/١

(٤) تاريخ الادب العربى ١٥٦/٢

(٦) المرجع السابق ص ٦٢

(٥) ابن قتيبة اللغوى ص ٦٢

وقد ذكر الأزهري هذا الكتاب وأشار إلى موقفه مما ذكره ابن قتيبة من أخطاء أبي عبيد فقال في حديثه عن ابن قتيبة : « ورد على أبي عبيد حروفاً في غريب الحديث سماها إصلاح الغلط وقد تصفحتها كلها ووقفت على الحروف التي غلط فيها وعلى الأكثر الذي أصاب فيه فأما الحروف التي غلط فيها فإني أثبتها في موقعها من كتابي ودلت على موضع الصواب فيما غلط فيه » (١) .

ومن رد على أبي عبيد أيضاً في غريب الحديث أبو سعيد البغدادي الضرير ذكره الأزهري وقال : « ورد على أبي عبيد حروفاً كثيرة من كتاب غريب الحديث وقدم عليه القتيبي فأخذ عنه » (٢) وربما كان لهذه العلاقة أثر في نقد القتيبي لأبي عبيد .

ومنهم أيضاً حسن بن عبد الله المعروف بلسكدة أو لفذه ، وصعوداً وعلى بن حمزة البصري (٣) .

وما ورد في نقده أيضاً ما جاء في تاريخ بغداد وكتاب غريب الحديث فيه أقل من مائتي حرف سمعت والباقي قال الأصمعي وقال أبو عمرو وفيه خمسة وأربعون حديثاً لا أصل لها أدنى فيها أبو عبيد من أبي عبيدة معمر ابن المثنى (٤) .

والظاهر أن النقد الذي ذكره ورد عليه صاحب طبقات الشافعية فقال عن الأزهري كان موجهاً أيضاً إلى بعض مواد غريب الحديث .

(١) تهذيب اللغة ٣١/١

(٢) المرجع السابق ٢٤/١

(٣) المعجم العربي ٥٣/١

(٤) تاريخ بغداد ٤١٢/١٣

يقول ابن السبكي : حكى الأزهري في التهذيب عن أبي عبيد القاسم ابن سلام في قوله عليه السلام « لا يموت مسلم ثلاثة من الولد فتتمسه النار إلا تحلة القسم » أن المراد بهذا القسم قوله تعالى : وإن منكم إلا واردة فإذا مر بها متجاوزاً لها فقد أبرأ الله قسمه ثم اعترض الأزهري بأنه لا قسم في قوله : وإن منكم إلا واردة فكيف يكون له تحلة ... إلخ كلام الأزهري ويرد ابن السبكي فيقول : قلت وهو اعتراض عجيب فإن القسم مقدر في قوله وإن منكم لأن القسم عند النجاة يتعلق بالنفي والإثبات والتقدير : والله إن منكم إلا واردة ... إلخ (١) .

وقد جرت بعض الاختصارات لهذا الكتاب ذكر بروكلمان منها مختصر غريب الحديث للاستاذ أباضي وهو أبو علي الحسين بن أحمد وذكر أنه موجود في برلين .

كما ذكر أن هناك اختيارات من غريب الحديث في مكتبة كوبريلي ٤٥٥ وقد أشار أيضاً إلى أن كتاب الأجناس إنما هو من استخراج أبي عبيد نفسه من كتاب غريب الحديث (٢) .

وكما حاول بعضهم اختصاره فقد أضاف بعضهم إليه وزاد فيه وكان أهم هذه الزيادات : كتاب مازاد في المصنف وغريب الحديث « لمحمد ابن أبي جعفر المنذري الخراساني اللغوي العدل أبو الفضل (٣) وأبو الفضل هذا هو صاحب الأزهري وقد سبقت الإشارة إلى زياداته في كتاب الأمثال

(١) طبقات الشافعية ٢٧٢/١

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٥٦/٢

(٣) انظر : إنباه الرواة حاشية ص ٧١ وقد نقل المحقق ذلك عن ياقوت .

وقد جرت محاولات ودراسات أخرى لترتيب هذا الكتاب أو تقريبه
نذكر منها :

— كتاب الغريبين لأبي عبيد الهروي الذي حاول فيه الجمع بين غريب
القرآن وغريب الحديث وترتيب ذلك على الحروف الأصول وكان كتاب
أبي عبيد في غريب الحديث مما جمعه فيه (١) .

— تقفية غريب الحديث لعلي بن عبد الله بن محمد بن عبد الباقي بن
أبي جراحة العقيلي أبي الحسن شيخ العلماء في وقته بحلب .. يقول القفطي :
ولم يكن من أهل العربية على التحقيق وإنما ذكرته هاهنا لأنه تعرض إلى
غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام رضى الله عنه فقفاه على حروف
فشارك بهذا التصنيف أهل اللغة ، فذكرته في هذا المصنف وملكت هذا
التصنيف وفيه ما فيه قوف سنة ٥٤٦ هـ أو سنة ٥٤٨ هـ (٢) .

— كتاب تقريب المرام في غريب القاسم بن سلام للشيخ الإمام
محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ كتبه على غريب
الحديث لأبي عبيد مهبوباً على الحروف (٣) .

— تقريب الغريبين لأبي عبيد وابن قتيبة جمعه واختصره الشيخ
الفقيه أبو الفتح سليم بن أيوب الرازي (٤) .

كتاب تهذيب غريب الحديث للخطيب التبريزي ذكره صاحب إنباه

(١) انظر النهاية ٩/١

(٢) إنباه الرواه ٢٨٥/٢

(٣) كشف الظنون ٢١٨/١ والبلغة في أصول اللغة ص ١١٣

(٤) فهرسة مارواه ابن خير عن شيوخته ص ١٩٥

الرواة قال : وقد روى أبو العلاء ولم يكن مكثرا وذلك أني شاهدت بخط ابن كهيار الفارسي صاحب الخطيب أبي زكريا التبريزي والأخذ عنه — وكان ذكيا فاضلا محققا لما ينقله حاكيا عن صاحبه في تصنيفه لتهديب غريب الحديث لأبي عبيد .

وقد ذكر التبريزي أنه قرأ غريب الحديث على أبي العلاء المعري سنة خمس وأربعين وأربعمائة وأسندته أبو العلاء إلى علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد (١)

كتاب تصنيف غريب الحديث على حروف المعجم ذكره صاحب إنباه الرواة فقال عن عبد العزيز بن عبد الله بن ثعلبة أبي محمد السعدي الأندلسي الشاطبي وصنف غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام على حروف المعجم ، وجعله أبوابا . ومات سنة ٤٦٥ هـ في شهر رمضان في حران (٢)

وأخيرا فقد صدق ما رواه أبو علي القالي غدير مرة قال : قال لنا أبو بكر بن دريد وابن الأنباري : كتاب الألفاظ بضاعة وكتاب إصلاح المنطق بضاعة ، وكتاب أدب السكاتب لابن قتيبة بضاعة ، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد بضاعة ، وكتاب شرح غريب الحديث له بضاعة (٣)

(١) إنباه الرواة ١ / ٦٩

(٢) إنباه الرواة ٢ / ١٨٣

(٣) فهرسة ما رواه عن شيوخه ٣٢٦

الغريب المصنف :

وهو أعظم كتب أبي عبيد وأجلها عند العلماء ذكره يقول الأزهري :
وأخبرني أبو بكر الأبادي عن شمر أنه قال : ما للعرب كتاب أحسن
من مصنف أبي عبيد (١) ، وفي تاريخ بغداد : وليس له كتاب مثل غريب
المصنف ، (٢) بل إن أبا عبيد نفسه يبجل هذا الكتاب ، ويعبر عن قيمته
فيما يرويه علي بن محمد ابن وهب المشعري عن أبي القاسم بن سلام قال :
سمعته يقول : هذا الكتاب يعني غريب المصنف أحب إلي من عشرة آلاف
دينار ، (٣) .

وإذا كان القدماء قد قالوا هذا وغيره فإن المحدثين أيضا قد أدركوا
قيمة هذا الكتاب ، وعبروا عن تقديرهم له ، كل حسب معرفته به ،
أو حاجته إليه .

فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس أبا عبيد فقال : أما أبو عبيد فيعد من
ساهمو في جميع الألفاظ ونشأة المعاجم بكتابه الضخم الذي لا يزال مخطوطا
حتى الآن وهو الغريب المصنف ، وهو معجم مرتب على حسب المعاني (٤)

ويذكر الدكتور حسين نصار فضل أبي عبيد في هذا الكتاب ويشير
إلى أن شهرته - على الرغم مما به من تصحيفات قد طبقت الآفاق ، (٥)

(١) تهذيب اللغة ج ١ ص ٢٠

(٢) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٤١٣

(٣) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٦٠ وانظر الفهرست ص ١١٣

(٤) دلالة الألفاظ ص ٢٢٦

(٥) المعجم العربي ج ١ ص ١٠٨

ويقول الطالبي : « معجم غريب جليل على كثيرة عيوبه يعد مصدرا
وأما من أمهات اللغة على عدم إحاطته ، (١) .

أما المستشرق الكرنكوي فإنه يقول عنه : هذا ذخيرة اللغة العربية
على أسلوب غير المعاجم ولكنه مرتب على مثال كتاب المخصص ، (٢) ، ولو
عكس لكان أفضل إذ أن المخصص هو الذي رتب على مثاله .

من هذا وغيره يتضح الإحساس عند الجميع بأهمية هذا الكتاب أو عظم
خطره ، ومن ثم فقد كان جديرا بملك الدراسة الخاصة التي أوليتها له أسأل
الله أن يعين على إخراجها قريبا .

ومع هذا فإننا لا نرى بأسا في إلقاء نظرة مناسبة عليه في هذا المقام .
لقد اختلف القدماء في تسميته على نحو ما حدث لكتاب غريب الحديث
ولغيره من الكتب القديمة كما أسلفنا ، وإن كان الاختلاف هنا أوسع فقد
رأينا له فيما اطلعنا عليه ، حوالى ستة أسماء متقاربة غالبا وهي : الغريب
المصنف : كما عند ابن خلكان ، والسيوطي ، وكثير من المحدثين .

٢ — غريب المصنف ، كما هو عند ابن النديم ، والبغدادى ،
والسيوطي .

٣ — المصنف : كما عند الأزهري ، والزبيدي ، والسيوطي أيضا .

٤ — المؤلف : كما هو عند الأزهري .

٥ — مصنف الغريب : ذكره ابن فارس ، والنمخشري .

(١) المخصص لابن سيده : دراسة ودليل ص ٢٤

(٢) تذكرة النوادر ص ١٠٧

٦ — غريب اللغة : كما ذكره الفيومي في المصباح المفير .

ويلاحظ من هذا أن بعضهم كان يذكروه بأكثر من تسمية على نحو ما نراه عند السيوطي، والأزهري، وأن التسمية الأولى هي الأكثر شيوعاً والأعم استعمالاً وبخاصة عند المحدثين .

والظاهر أن هذا الاسم لم يكن جديداً على أبي عبيد فقد سبق إلى استعماله بعض أساتذته مثل أبي عمرو والشيباني، كما استعمله أيضاً بعض علماء الحديث واللغة كقطرب، والقاسم بن معن الكوفي، ولكننا لانكاد نلمحه عند المصنفين بعد أبي عبيد .

وقد سبق أن ذكرنا المعنى اللغوي لكلمة الغريب، ويمكن أن نضيف هنا ما ذكره التهافوي عن هذا المعنى إذ يقول : الغرابة كون الكلمة غير ظاهرة المعنى، ولا مأفوسة الاستعمال سواء كانت بالنظر إلى الأعراب الخالص أو بالنظر إلينا، وتلك الكلمة تسمى غريب ويقابلها المعتاد، ويرادفه الوحشي، فالغريب منه ما هو غريب حسن وهو الذي لا يعاب استعماله على الأعراب الخالص، لأنه لم يكن ظاهر المعنى، ولا غير مأفوس الاستعمال عندهم، وذلك مثل : شرفيت، واستمخر، واقطر، وهي في النظم أحسن منها في النثر ومنه غريب القرآن والحديث، وهذا غير محل بالفصاحة، ومنه غريب قبيح وهو الذي يعاب استعماله مطلقاً أي عند الخالص من الأعراب وغيرهم، (١) .

ويزيدنا الزنجشري توضيحاً وقرباً من هدفنا وهو معرفة معنى « هذا الاسم فيقول رحمه الله : « وتسكلم فأغرب إذا جاء بغرائب الكلام وفوادره، ونقول : فلان يعرب كلامه ويغرب فيه، وفي كلامه غرابة وغرب كلامه،

وقد غربت هذه الحكمة أى غمضت فى غريبة ، ومنه مصنف الغريب
وقول الأعرابي : ليس هذا بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء (١) .

وعلى هذا فإننا نستطيع القول بأن الغريب المصنف ، إنما يعنى الكلام
الغامض البعيد عن الفهم ، الذى جعل أصنافا ، وميز بعضه عن بعض ورتب
بحيث صار لكل صنف منه ، مكان أو موضع خاص به .

وعندما يستقر هذا الفهم نكون قد عرفنا من موضوع هذا الكتاب ،
ووقفنا على الغرض العام والهدف الأساسى له .

فقد أراد أبو عبيد أن يجمع الألفاظ الغريبة فى نظره فى كتاب واحد ،
مصنفا إياها على حسب موضوعاتها ومعانيها ، وتلك طريقة من طرق المعاجم
شرعها أبو عبيد ، ونسبت إليه على الرغم من أنه مسبق إليها فى العربية
وغيرها ، لكن الفضل يرجع إليه فى إحيائها ، وحسن تنظيمها ، والارتقاء
بها إلى ما يناسب الفكر والمنطق .

فلا عجب بعد ذلك أن تنسب إليه مدرستها المعجمية وأن بعد بحق
كما سيأتى الرائد الحقيقى لهذا الصنف من التأليف (٢) .

والظاهر أن أبا عبيد قد بدأ مبكرا ، فى تصنيف هذا الكتاب وأنه اتبع
فيه المنهج الذى سبقته الإشارة إليه فى الحديث عن كتابه الآخر « غريب
الحديث » فقد سلك طريقة وضع العناوين أو الأقسام والأبواب أولا ،
ثم ملأ تلك الخريطة ، بما يفتح الله به من أفواه العلماء والرواة .

وقد وردت عنه نصوص تشبه تماما ، تلك التى سقناها فى الحديث عن

(١) أساس البلاغة « غرب » ج ٢ ص ١٥٩ ط دار الكتب .

(٢) أنظر مقدمة الصحاح ص ٩٩ .

الكتاب السابق ، من أنه قضي في تصنيفه أربعين سنة أو ثلاثين سنة ، وأنه ربما كان يستفيد أو يسمع الحرف أو الفائدة يعرف لها موضعها من الكتاب ، ويضعها فيه ، فيبيت تلك الليلة فرحاً مسروراً .

وهذا لا يمكن حدوثه إلا إذا كانت للمؤلف خطة موضوعية وطريقة مرسومة ، يسير على هديها ، وينفذ أغراضها وأهدافها .

ويقولون إنه أهداه - كعادته - إلى أحد الطاهرين وأنه أجاز له عليه ، يقول أبو الطيب اللغوي : أخبرنا محمد بن عبيد الواحد قال : أخبرنا المهدي قال : قال أبو عبيد : جمعت كتاب الغريب المصنف في ثلاثين سنة ، وجمعت به إلى محمد بن عبد الله بن طاهر فأمر لي بألف دينار (١) .

وهناك روايات أخرى تدل على أن المهدي إليه هو طاهر بن الحسين وأن الإهداء تم إثر عودته من خراسان ليحمل أبا عبيد معه إلى مصر من رأى (٢) .

ويدفعنا قوله « من أفواه الرجال » إلى التساؤل عن مراجع أبي عبيد ومصادره في هذا الكتاب ؟ ذلك أننا فلاحظ أنه لم يقل إنه جمعه من كتب الرجال أو رسائلهم أو قوائمهم ، وإنما من أفواههم وأبو عبيد مصدق عند العلماء والرواة عنه كثيرون وموثوق بهم .

ومعنى هذا أنه لا صحة لما ذهب إليه ابن النديم من أنه أخذ كتابه عن النضر بن شميل (٣) .

وقد كفانا الدكتور حسين نصار الرد على ذلك فقال بأنه ليس من

(١) مراتب النحويين / ٩٣ .

(٢) إنباه الرواه ١٥/٣ .

(٣) الفهرست ٨٣ .

العدل لأن أبا عبيد الذي يلتزم ذكر رجاله ، ويصرح بأسمائهم ، لم يذكر لنا النضر ، ثم يقول أيضا : « ولا مانع عندنا أن يكون نظام الغريب مشابها لنظام كتاب النضر وبالرغم من ذلك فإن فهرس ما يضمنه من كتب يبين بوضوح مدى الإضافات والموضوعات الجديدة التي ضمها « الغريب المصنف ولم تكن في « صفات النضر » ، (١) .

وأضيف إلى هذا أن أحدا لم يذكر حدوث لقاء أو اجتماع بين أبي عبيد والنضر بن شميل وقد كانا متعاصرين حتى نقول بأنه روى عنه كتابه ، على الأقل .

كذلك لا يمكن للعقل العلمي أن يقبل تلك الدعوى التي أشاعها أبو الطيب اللغوي بقوله عن أبي عبيد : « وأما كتابه المترجم بالغريب المصنف فإنه أعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه لنفسه ، فأخذ كتب الأصمعي فبوب ما فيها وأضاف إليها شيئا من علم أبي زيد ، وروايات عن الكوفيين » ، (٢) .

إذ أن أبا الطيب لم يذكر لنا مصدر هذه الدعوى ، وهو المعروف منهجه بالسند والرواية ، كذلك فإنه لم يوضح لنا اسم ذلك الرجل الهاشمي ، كذلك فإنه يروي بعد ذلك أن أبا عبيد جمع الكتاب في ثلاثين سنة وأنه أجزى بألف دينار ، ولو كان معتمدا على ذلك الهاشمي ما استغرق كل هذا الزمن في تأليف كتابه وما أجزى عليه ، فهل هو التناقض لم تحس به أبا الطيب ؟ وهل يجاز المعتمد على كتب غيره ، ويوصف بحسن التصنيف ؟ وبالأوصاف التي سبق ذكرها ؟ وكيف تصف أنت نفسك أبا عبيد بالثقة المأمون وهو لم يذكر اسم ذلك الهاشمي ولم يشر إلى كتابه مع أن الجميع يعرف منهج

(١) المعجم العربي ٢٠٨/١ .

(٢) مرآة النحويين ص ٩٣ .

أبي عبيد الذي يصل إلى حد المبالغة في نسبة الأقوال إلى أصحابها ! ليس هو ما يروى عنه ، من شكر العلم أن نستفيد الشيء فإذا ذكر لك قلت : خفي على كذا وكذا ولم يمكن لي به علم حتى أفادني فلان فيه كذا وكذا فهذا شكر العلم ، (١) .

إن أبا عبيد — كما تعام أبا الطيب — كان أفضل من طابق منهج الرواية عند المحدثين على رواية اللغة ، وكان الإسناد في هذا المنهج مكانته كما يشير إليه الأستاذ أحمد أمين (٢) .

ثم كيف يسكت علماء اللغة على تلك الفعلة من أبي عبيد ويثنون عليه وينقدون بعض مروياته ، لكنهم لا يذهبون إلى ما ذهبوا إليه ؟

إنني أكاد أشم في هذه الدعوى رائحة التعصب البصري من أبي الطيب ، إذ كان مشهورا بالعصبية المذهبية ، كما يذكر الدكتور مكي الأنصاري ، وقد كانت تلك عادته مع كل من لم يدر في فلك علماء البصرة (٣) وأبو عبيد في نظره من أعلام السكوفة ، فلا أقل من أن نعجزه في ذلك العصر الذي كان للعصبية المدرسية أثرها في هدم كل بنيان متين .

إن أبا عبيد كان في غاية الصدق عندما ذكر أنه أخذ كتابه وكل كتبه من أفواه العلماء ، وقد ذكرهم في كتابه ، وذكر السماع منهم ، وحدث التاريخ بلفائدهم ، ورحلته إليهم ، وشغفه بالاجتماع بهم ، وسجل علماء السند والجرح والتعديل أفضل الشهادات له ونقل عنه أئمتهم على نحو ما أسلفنا ، فما ل هذه التهم لا تأتي إلا من أصحاب الصناعة وأهل الشركة في البضاعة ! وقد يما ذكروا أن الحسد يشيع في أوساط العلماء .

(١) المزهري ٣١٩/٢ وانظر طبقات المفسرين ق ٢٠١ ب .

(٢) منحة الإسلام ٢٥٨/٢ .

(٣) أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة ص ٣٦٧ .

كذلك لا يقبل البحث العلمي تصديق ما أشار إليه بعض العلماء من أن
أبا عبيد قد أخذ مادة كتابه من تلك الكتب أو الرسائل الصغيرة التي ألفها
أساتذته ورويت عنهم فيما بعد ، وأن دوره بناء على ذلك لم يكن غير التأليف
بين تلك المواد المتشابهة المختلفة المصادر مع ما في ذلك من مشقة وما يقتضيه
من فن ومهارة .

ذلك أننا لم نراسمه بين رواية أي رسالة من تلك الرسائل التي وصلت إلينا ،
وأننا لم نراسم رسالة أو كتاب منها في الغريب المصنف الذي هو مبنى على
أقوال وروايات أصحابها .

وأن بعض هؤلاء لم يعرف لهم رسالة أو كتاب ، وأن روايات الكتاب
تشيع فيها عبارات الدقة والتشكيك . مثل : فلان أو فلان ، وفلان مثله
أو نحوه ، وفلان أو غيره ، والناقل عن الكتب لا يحتاج إلى ذلك التشكيك .

كذلك نلاحظ أن الشيخ عندما يروي عن أحد أساتذته يذكر أحياناً
الواسطة بينه وبينه كقوله : الفراء . عن الكسائي : تحفة الجبل أعلاه بالشاء ،
قال الفراء : الذي سمعت أنا بالنون .

وقد نسي هؤلاء الذين يذهبون إلى أخذ شيخنا من الكتب أن تلك
الرسائل الصغيرة لم تكن كتباً مؤلفة شائعة وإنما هي عبارة عن روايات
أو محاضرات يلقيها الشيوخ ويكتبها تلامذتهم كل بطريقته . ومن ثم كان
الأخذ منها مباشرة يعد عيباً في حياة أصحابها . وفي تلك العصور التي
تميزت بالسماع والرواية ، ولو أخذ أبو عبيد من تلك الصحف لأخذه على
ذلك العلماء ولم يوثقوه هذا التوثيق .

ونسوا أيضاً أن بعضهم كان يضمن بما كتب على الناس ويخفيه على
نحو ما يروي عن الأصمعي وعن ابن أخيه الذي استأثر بكثير من دواوينه
وكتاباتة .

والحق في كل هذا أن أبا عبيد الذي رويوا جميعاً أنه جالس أو سمع أو روى عن أولئك العلماء الذين ذكرهم في كتابه قد أخذ كتابه سماعاً ومشافهة — كما قال — من أولئك الرجال .

ومن يوازن بين ما جاء في أبواب الغريب المصنف وما جاء في تلك الكتب أو الرسائل التي وصلت إلينا مما ينسب إلى شيوخ أبي عبيد يتبين له — بكل وضوح — أن أبا عبيد لم يأخذ حقاً من تلك الرسائل التي تحمل عناوين مثل عناوين أبوابه .

ولقد قمت ببعض هذه الموازنات وتأكدت من صدق ما ذهبت إليه .

ولنكتف هنا بذكر بعض ما لاحظته من الموازنة بين كتاب الخيل للأصمعي الأستاذ الأول لأبي عبيد وأكثر الرواة ذكراً في الغريب المصنف . وما ذكره شيخنا عن الخيل في الغريب المصنف :

١ — كتاب الخيل للأصمعي مطبوع يشبه المخطوط فقد طبع بتحقيق المستشرق الألماني « هفتر » في فيينا سنة ١٨٩٥ م .

ومع هذا فلم أر منه في دار الكتب إلا نسخة وحيدة اضطرت إلى نقلها وهو يقع في ٢٩ ص ألحق بها كتابات بالألمانية ومعجم في حوالى ٣٣ ص ، وترجع روايته إلى أحد شخصين هما عبد الرحمن بن أخى الأصمعي عن عمه ، وأبي حاتم عن الأصمعي ، ولا يذكر هنا أبو عبيد .

ويبدأ الكتاب بالحديث عن حمل الخيل ، وقتاجها ثم ولادتها وأسنانها ، وأسماء أعضائها وإن لم يضع عنواناً لذلك ، ثم يتحدث عما يستحب في الخيل تحت عنوان : ما يستحب في الخيل ، ثم ما يكره في الخيل ، ثم « صفة مشى الخيل » ، وعدوها ، ثم ألوان الخيل ، ثم « ومن الشيات » ، ثم يختم الكتاب بالحديث عن بعض أسماء الخيل ، المشهورة وأنسابها وأصحابها وطفان من أخبارها كل ذلك بدون عنوان له .

فإذا ما نظرنا في الغريب المصنف نجد أنه عقد كتاباً للخيل ذكر فيه الأصمعي حوالي ١٣ مرة مما جعل باحثاً كالدكتور حسين نصار يذكر أنه اعتمد فيه إلى حد كبير على الأصمعي .

و كانت موضوعات أبي عبيده في هذا الكتاب هي :

بعض صفات الخيل ، نعت خلق الخيل ، باب الجرى والادو من الخيل ، أصوات الخيل ، باب مسير الخيل ، وجماعاتها إذا غارت ، نعوت كتاب الخيل ، باب عيوب الخيل وغيرها من الخافر ، باب قيام الحبل وغيرها من الخافر ، باب قيام الخيل ، باب الجانب الوحشي والإنسي من الدواب ، باب شدة الخيل .

ومنه يتبين أن هناك فرقاً واضحاً بين موضوعات كل من الأصمعي وأبي عبيد .

هذا من ناحية الموضوعات والتبويب فإذا ما اطلعنا على مادة كل من الكتابين فإننا سنرى اختلافاً واضحاً أيضاً بين كلام الأصمعي في كتابه وما رواه عنه أبو عبيد في الغريب المصنف .

ويتمثل هذا في وجود عبارات منسوبة للأصمعي في الغريب المصنف وليس لها أثر في الكتاب المنسوب إليه مثل قول أبي عبيد : الأصمعي : من أصوات الخيل الشخير والنخير والكرير قال : فالشخير من الفهم ، والنخير من المنخيرين ، والكرير من الصدر .

ولا نستطيع القول بأن ذلك من اختلاف الروايات على الأصمعي لأن الأصمعي لم يعقد في كتابه أصلاً باباً لأصوات الخيل كما فعل أبو عبيد .

وهناك في الغريب المصنف عبارات منسوبة للأصمعي ، وهي في كتاب

الخيـل بمعناها فقط ، والمعروف عن أبي عبيد أنه كان حريصاً جداً على النص
لدرجة أنه كان يقول كثيراً في رواياته ، مثله أو نحوه ، .

ومن تلك العبارات ما جاء في الغريب المصنف :

قال الأصمعي : والساطى البعيد الشحوة وهي الخطوة وقد سـاـ
يسطو (١)

وفي كتاب الأصمعي : فإذا كان رغب الشحوة كثير الأخذ من الأرض
قل هذا ساط من الخيل (٢) ، ويلاحظ أيضاً ذكر الفعل في رواية أبي عبيد
عن الأصمعي وحلو عبارة الأصمعي منه .

وهناك أمثلة كثيرة لعبادات رواها أبو عبيد عن الأصمعي ، فإذا طلبتها
في كتابه وجدت هامة فرقة في أكثر من موضع مما يدل على أن أبا عبيد لم يأخذها
من كتاب الأصمعي ، كذلك نرى اختلافاً في ذكر الشواهد حيث نرى أبا عبيد
يغفل في رواياته الأصمعية شواهد كتاب الأصمعي ، مع ما عرف عن أبي عبيد
من دقة العقل والأخذ . ومن صور ذلك : الغريب المصنف : الأصمعي : المعدان
موضع رجل الراكب (٣) كتاب الخيل : وفي الفرس المعد ، وهو موضع رجل
الفارس وما يحدث به الفارس وفيه المراكل وهو مثل المعد سواء قال :
(الرجز) :

فأبي المعدين وأبي نظار مخجل لاح له خمار (٤)

(١) الغريب المصنف ١/٤

(٢) كتاب الخيل ص ٢٠

(٣) ص ١١٥

(٤) كتاب الخيل ص ١٣

وواضح من الأمثلة السابقة ما في عبارات الأصمعي من اختلاف أيضا في الزيادة والنقصان بين كتب الخيل والغريب المصنف .

ومن كل ما سبق يتأكد لنا أن أبا عبيد لم يعتمد على هذا الكتاب المروى عن الأصمعي ، وإن كان قد اعتمد كثيراً — كما قلنا على صاحبه — ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرواية عنه ، والسماع منه ، وهذا ما قصدنا إلى توضيحه وإظهاره .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لكل رواية أبي عبيد الذين وصلت إلينا كتب أو رسائل لغوية منسوبة إليهم .

ومما يؤكده — أيضا — أن أبا عبيد لم يكن يأخذ من تلك الكتب أن على بن حمزة البصري الذي نسبته على أخطاء أبي عبيد ذكر أن سبب هذه الأخطاء يرجع إلى أن أبا عبيد كان يعتمد على الكتابة عن الشيوخ فأصابه التصحيف من هذه الناحية إذ أن خطه لم يكن جيداً ، ومعنى هذا أن أبا عبيد لو كان ينقل عن الكتب ما وقع في هذه الأخطاء ، أو كانت أخطاؤه تنسب إلى من ينقل عنه .

هذا وإن في قائمة مصادر أبي عبيد لدليلاً آخر على صدق دعواه وأنه لم يأخذ كتابه من الكتب وإنما من أقوال العلماء ورواياتهم ، ويمكننا أن نرتب هذه القائمة على أساس مرات ورود أسماء المذكورين فيها ترتيباً قنازلياً على النحو التالي :

عدد مرات وروده	المصدر	م	عدد مرات وروده	المصدر	م
٦	أبو الوليد	١٦	١٠٠٠	الأصمعي	١
٣	أبو شنبل (١)	١٧	٦٠٠	أبو زيد الأنصاري	٢
٢	أبو جحوس	١٨	٥٤٣	الكسائي	٣
٢	ابن أبي حفصة	١٩	٥٣٠	أبو عمرو الشيباني	٤
٢	أبو فقهس	٢٠	٣١٧	الغراء	٥
٢	أبو زياد الأعرابي	٢١	٢٤٢	الأموي	٦
١	أبو القعقاع	٢٢	١٧٢	أبو عبيدة	٧
١	ثور النخري	٢٣	١٤٧	الأحمر	٨
١	ابن قتيان	٢٤	٥٢	اليزيدي	٩
١	خالد بن كلثوم	٢٤	٢٩	العديس الكندي	١٠
١	أبو حلقمة الثقفي	٢٦	٢٥	أبو الجراح العقيلي	١١
١	أبو طيبة الأعرابي	٢٧	١٥	أبو زياد الكلبي	١٢
١	أبو العالية الرياحي	٢٨	١٠	أبو الحسن الأعرابي	١٣
١	أبو البدياء	٢٩	٩	ابن الكلبي	١٤
١	الواقدي	٣٠	٩	القناني	١٥

(١) لم أره في المصادر التي رجعت إليها والذي رأيته أبو شبل العقيلي

ذكره ابن النديم ص ٧٤

وقد وردت بعض المصادر التي يبدو أنه لم يأخذ عن أصحابها مباشرة كما يظهر من أقواله وهي على النحو التالي :

أبو عمرو بن العلاء ، الخليل بن أحمد ، الرؤاس ، القاسم بن معن بن أبي الزناد ، المفضل ، معاذ ، خلف الأحمر ، العكلى .

ومن الواضح أنه لم يأخذ كثيراً عن هؤلاء حيث إن هذه الأسماء لا تتردد إلا قليلاً جداً فقد لا يتجاوز أكثرها وروداً مرات ثلاث .

هذا وتشيع في أبواب الغريب المصنف ظاهرة تراها كثيراً في كتب ومعاجم اللغة وهي الاستغناء أحياناً عن ذكر اسم المصدر والاكتفاء بنسبة القول أو الشرح إلى ما يعبر عنه بعبارة مثل : « غيره » ، « غيرهما » ، « غيرهم » ، « غير واحد » ، « غير واحد ولا اثنين » ، « بعضهم » ، « بعض بني فلان » ، وقد نسبت إلى ما عبر عنه بلفظ غيره ، وحده ما يقرب من ٥٦٠ قولاً أو شرحاً .

وفي هذه الظاهرة دلالة على صدق الرواية ، وأمانة العقل ، وقد رأيناها في المخصص لابن سيده وغيره من كتب اللغة ، واهم تر أحدا فيمن أطلعنا على أقوالهم يعيب هذا أو يطعن به على من من يستعمله ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى عوامل النسيان ، أو الرغبة والإيجاز ، أو شهرة القول عند أرباب التخصص .

ولقد برع أبو عبيد في استخدام هذه المصادر الكثيرة ، وظهر هذا في تمكنه من هندسة بنائه ، وتنظيم كتابه ، وجعل الوحدة والترابط في الباب لا تتبع فقط الترجمة أو العنوان ، وإنما تنشأ أيضاً من ذلك التسلسل البديع ، على الرغم من تعدد أصحاب الأقوال ، واختلاف آرائهم أحياناً .

وقد استخدم الشيخ كل صور الترابط في تلك العمالية الكبيرة التي قام

بها ، وفي هذا الحشد الضخم من الكلمات والتعريفات المختلفة المصادر ، فجعلها تبدو أمامك يؤكّد بعضها بعضا ، أو يكمل أحدها الآخر ، أو يضيف بعضها جديدا في الموضوع ، وقد يخالف أحدها الآخر ويناقضه أو يفسره ويوضحه بالشرح أو بالشاهد... كل ذلك كما قلنا أكثر من مرة ، في دقة ، وترايط ، وتماسك عجيب وأمانة علمية تجعله يعبر عن شكك إذا نسي اسم المصدر أو عرض له عارض الظن في نسبة قول أو شرح أو شاهد إليه .

* * * *

وقد قسم أبو عبيد كما سبقت الإشارة إليه كتابه إلى أقسام جعل لكل قسم منها موضوعا عاما ، وأطلق عليه لفظ كتاب ثم قسم كل كتاب من تلك الكتب إلى أقسام تبعها لما يتفرع عن موضوعه من قضايا وموضوعات صغيرة ، وأطلق على تلك الأقسام الصغيرة تسمية مصطلح الباب ، ثم حشا كل باب بالألفاظ والأقوال والشواهد ، التي تخدم موضوعه وهدفه .

هذا هو التصور الذي يؤخذ من النظرة العامة في غريب أبي عبيد ، لكننا نلاحظ فيما تحت أيدينا من نسخ هذا الكتاب الذي لم يطبع بعد بعض التجاوزات أو الاضطرابات أو النقص في هذا التخطيط والمنهج العام ، فنظرا لما مر به الكتاب من ظروف جغرافية وتاريخية مختلفة .

وقد أدى هذا إلى اختلاف أقوال الباحثين أحيانا فيما يتصل بخطة الكتاب ، وتقسيمه ، وتبويبه . فالأستاذ أحمد عبد الغفور عطار مثلا يذكر أن الغريب المصنف يشتمل على أكثر من ثلاثين كتابا ويؤخذ من كلامه أنه قد اعتمد على مصورة المجمع النخعي المأخوذة عن نسخة

دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١ (١) ، أما الأستاذ الطالبي فإنه يذكر أن الكتاب يتألف من ٢٧ كتاباً وقد ذكرها وأوضح أنه اعتمد في ذلك على نسخة تونس المسكونة من ٦١٠ ص (٢) ، ويذكر الدكتور حسين نصار أنه اعتمد على نسخة المجمع اللاهوتي المصورة عن نسخة مكتبة الفاتح بتركيا وهي تضم ٦٧٠ ص وتشتمل على أكثر من ثلاثين كتاباً في موضوعات مختلفة ، ويلاحظ أن الدكتور نصار قد استخدم مصطلح « كتاب » ولم يذكر مصطلح « باب » (٣) .

وقد شاء الله أن يكون اعتمادي في هذا على نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم ١٢١ لغة ، ومن العجيب أني لم أجده مصطلح « كتاب » يخالق إلا في أحد عشر موضعاً تقريباً ، أما في غير ذلك من العناوين والموضوعات فإنه يذكر لفظ باب . . . أو يذكر العنوان دون ذكر لفظ كتاب أو باب ، ومن أمثلة المواضع التي يذكر فيها لفظ كتاب قوله : كتاب النساء ، كتاب الباس ، كتاب الأطعمة ، ومن أمثلة ذكره لفظ الباب على الموضوعات الكبيرة قوله : باب تسمية خلق الانسان ونعوته ، باب الخيل والسلاح ، باب الأمراض . . . ومن أمثلة تركه لفظ كتاب وباب معاً ما جاء في قوله : أمثلة الأسماء ، « أمثلة الأفعال » وهكذا .

والحق أني لم أجده فيما حاولت الاطلاع عليه نصاً قديماً يحدد لنا عدد الكتب في الغريب المصنف ، ولكن الذي وجدته هو نص يحدد لنا عدد أبواب الكتاب . فقد ذكر صاحب الفهرست « وعدد أبوابه على ما ذكر

(١) الصحاح ومدارس المعجمات ص ١٠١ ، ١٢٨

(٢) النخوص لابن سيده : دراسة ودليل هامش ٣ ص ٢٤ وما بعدها

(٣) المعجم العربي ٢٠٧/١

ألف باب ، وواضح من هذه العبارة أنه غير متأكد من هذا ، وقد حاولت تصور الأقسام التي يمكن أن تسمى كتباً معتمداً على نسختي ومستأنساً بما ذكر عن النسختين : التونسية والتركية فوجدت أن كتب الغريب المصنف يمكن أن تصل إلى اثنين وثلاثين كتاباً ، ولم كنت أود أن أذكرها لولا ضيق المقام ، ويلاحظ أن هناك بعض الاضطراب في هذا التقسيم ، ربما أشرنا إليه بعد حديثنا عن أبواب الكتاب .

فقد ذكر صاحب الفهرست كما مضى أن عدد الأبواب - فيما ذكر - ألف باب ، وقد رويت هذه العبارة وشاعت بين كثير من الباحثين حتى رأيناها عند بروكلمان ، وجورجي زيدان وغيرهم من المحدثين ، وقد حاولت إحصاء هذه الأبواب في نسختي ١٢١ لغة فرأيت فيها ٨٨٣ باباً واضحة لكل من يطلع على الكتاب ، لكن كلام صاحب الفهرست جعاني أعيد النظر فوجدت أن هناك اختلافاً جعل بعض الأبواب تدخل في غيرها خطأ من الناسخ .

ويمكن للقارىء الواعى ملاحظة ذلك في مظاهر كثيرة ترد في هذه النسخة ، مثل عدم التناسب في الكلام ، أو عدم التناسب بين العنوان والكلام الذي تحته ، ومثل سقوط العناوين أحياناً ، أو سقوط الباب كله من النسخة ، على نحو ما أرشدني إليه الأزهري فقد نقل عن باب ادعاء الرجل علماً لا يحسنه (٢) ، فلما رجعت إلى النسخة لم أجد فيها باباً بهذا العنوان مما يؤكد أنه قد سقط من الناسخ ، ومما يؤكد لنا سقوط بعض الأبواب أني عثرت على أبواب في النسخة التونسية لم تذكر في نسختنا .

وفي كل هذا إشارة إلى أن الكتاب كان يحتوي فعلاً على ذلك العدد

(١) الفهرست ١١٣

(٢) تهذيب اللغة ٩٧/١

الذي ذكره ابن النديم ، وأن من المأمول أن يظهر ذلك عند تحقيقه وخروجه إلى عالم النور . ومهما يكن فإن أحداً لا يستطيع إنكار ما سبقت الإشارة إليه من حدوث التداخل بين الكتب والأبواب ، ومن عدم الدقة في التقسيم ، حيث تذكر أبواب في كتب لا تمت لها بصلة ، وتذكر أبواب متفرقة دون جامع يردّها إلى أصل واحد : كما يلاحظ على الأبواب نفسها ظهور التعميم في عناوينها وحدث التكرار أحياناً فيها ، وسقوط بعض أوائلها ، ووقوع بعض التقديم والتأخير فيها ، وغير ذلك مما يدل على عدم اتساق وانتظام التقسيم والتبويب ، ومن المعقول أن ينسب كثير من ذلك إلى إهمال النساخ ، وعدم دقّتهم ، لكن من المعقول أيضاً ألا نبالغ في تنزيه أبي عبيد عن الخطأ وأن نرجع بعض تلك المظاهر غير المرضية — في نظرنا — إلى اعتماد الشيخ على الاستطراد ، وتتابع الخواطر ، والحرص على تسجيل كل شيء ، وعدم وضوح العلاقات بين الموضوعات ، إلى غير ذلك مما كان يشيع في مؤلفات ذلك العصر وما يمكن الاعتذار عنه بغلبة الحسنات في تلك الأعمال الرائدة .

أما حشو الأبواب فقد تم بتلك الألفاظ الغريبة المروية عن الأعلام السابقين ، كل باب على حسب ما فتح الله به من كلمات تتصل به ، ومن ثم فقد ظهر التفاوت الكبير في حجم تلك الأبواب ، ولم يكن بعيداً أن يشتمل أحدها على كلمة واحدة مثل باب « فعليل » ، إذ لم يذكر فيه إلا لفظ « شرحبيل » اسم رجل ، مما جعل الناسخ يضيفه إلى باب أفعولة فلا يعرف هذا إلا الباحث المدقق .

وهناك باب لا يذكر فيه غير بيت من الشعر وهو باب الغيظ والبيت هو قول صخر الغي :

فلا يقعدن على رخوة ونضمر في القلب وجدا وخيفا

وإن كنا نشك في هذا ونرى أنه ربما سقط منه كلام لم يتنبه إليه أحد .

ويلاحظ أن هذا الحشو في الأبواب لم يكن يتبع نظاماً معيناً فالمهم أن تذكر الكلمات والألفاظ المتصلة بالموضوع حسب تواردهم في الخواطر . ثم يقوم المؤلف بشرح تلك الألفاظ أو التعريف بها .

وقد يترك هذا الشرح أو التعريف عند عدم الحاجة إليه على نحو ما فعله مع كلمات مثل الأرجوحة ، والأغلوطة ، والأحدوثة وغيرها ، وقد يتركه أحياناً مع الحاجة إليه على نحو ما فعله في باب أشجار الجبال ما ينبت منها في السهل فقد ذكر حوالي خمسين اسماً لم يعرف بأكثر من اثني عشر منها ، ورص الباقى رصاً دون أى تعريف ، وكأنه ظن أنها معروفة لجيله ولكل الأجيال من بعده .

وقد يكون هذا الشرح أو التعريف ساذجاً كقوله مثلاً : الزاء ضرب من الأشربة .. والمغدى ضرب منه ، وقد يفسر اللفظ بمثله أو نظيره أو بما هو أغرب منه كقوله مثلاً : المسعط هو اللخا ولقد لحيت الرجل ، ولخوته ، وألحيته كل ذلك إذا أسقطته وكثيراً ما كان ينبه على معنى آخر للكلمة ليس من الباب الذى هى فيه كقوله : الجف الكثير من الناس . والجف فى غير هذا شئ ينقر من جذوع النخل ، وهو عادة يذكر الكلمة مفردة عن سباقها لكنه أحياناً يذكرها فى جملة كقوله : يقال : دخلنا فى غمار الناس ، وغمار الناس ، وخمار الناس ، وغمرة الناس ، وخمرة الناس أى جماعتهم وكثرتهم .

ومن الظواهر التى تشيع فى شروحه الالتفات إلى بعض المشتقات مثل الفعل والمصدر وتختلف هذه الظاهرة قلة وكثرة باختلاف الكتب والأبواب

وفي الكتاب كثير من الإشارات الصرفية وقليل من المعلومات النحوية ،
ومن الطرف الأول غير ما سبق التفاتة إلى المفرد ، والمثنى والجمع ، والمذكر
والمؤنث ، وكثير من ألوان الصيغ وأوزان الأفعال .

ومما يجب أن يعلم أنه قد وضع أبوابا أو كتباً خاصة بأهـمـة الأسماء
والأفعال ، وقد ظهرت في هذه الشروح والتعريفات التفاتات ذكية إلى
اللغات والمعربات وبعض الظواهر اللغوية الأخرى كالتضاد والاشتراك ،
والترادف إلى جانب بعض الصور الجمالية والبلاغية وغيرها مما فصلناه
في دراسة أوسع .

وقد كان لتعدد المصادر أثره في تلك الشروح فتعدد الشرح أو التعريف
أحيانا وظهر بعض التكرار ، واختلافات ، غير المحسومة مع أن أبا عبيد
كان يتدخل كثيرا فيما يروى ولم يكن في الحقيقة غائبا عما يقول .

وإذا كان البغدادي قد ذكر في خزائنه أن علم اللغة من العلوم التي
لا يستشهد فيها إلا بكلام العرب ، وأن كلام العرب شعر وغيره ، وغير
الشعر هو القرآن والحديث وأقوال أصحاب اللغة وأبنائها الذين عرفوا
بالفصاحة ، وشهروا بالبيان ، فإن أبا عبيد في غريبه المصنف وهو من أهم
أركان علم اللغة عند العرب ، لم يترك شروحه وألفاظه دون استشهاد بهذا
الكلام ، وقد استخدم رحمه الله كل هذه الألوان ، ففي الغريب المصنف
حوالي مائتان وألف شاهد من الشعر تتوزع بين الجزء ، والشطرة ، والبيت
والبيتين أكثرها منسوب إلى قائله وبعضها وهو حوالي ثلاثين وثلاثمائة
(٣٣٠ شاهد) غير منسوب .

وقد أحصيت شعراؤه الذين استشهد بهم فوجدتهم حوالى ثلاثة وأربعين ومائة شاعر (١٤٣ شاعر) منهم المشهور حتى ما يحتاج إلى بيانه ، ومنهم الغامض المهم ولو في أذهاننا اليوم .

وقد أشار ابن قتيبة إلى مثل هؤلاء قائلا : فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضاً أخباراً (١)

وقد أحس أبو عبيد أحيانا بما يحيط ببعض شعرائه من غموض ، فكان يحاول التعريف به كقوله عن ابن كلابية « وهو أحد بني عدى بن ثعلبة بن ربوع ، ومع ذلك فإننا نجده أحيانا ينسب بعض الشواهد لهذا دون أن يوضع لنا أى دليل يقصد !

وقد ذكر كثيراً منهم في كتابه بالأسماء أو بالكنى . ولما كان الشعراء طبقات وللعلماء في الاستشهاد بهم نظريات مؤسسة على تلك الطبقة فإننا نتساءل — بالطبع — عن طبقات أولئك الذين احتج أو استشهد بهم أبو عبيد ! إننا نرى عنده كثيراً من شعراء الجاهلية مثل : شعراء المعلقات ، مثل أوس بن حجر ، وحاتم ، والأسود بن يعفر ، وعدى بن زيد ، وأبو طالب ابن عبد المطلب ، وبشر بن أبي حازم ، وسلامة بن جندل ، وساعدة بن جؤية ، ودريد بن الصمة ، وأمية بن أبي الصامت ، ومهامل بن ربيعة ونهشل بن حري ، والمثقب العبدى ، والمهزق العبدى ، والمتنخل اليشكرى وغيرهم .

وفي بعض هؤلاء كلام ، فهذا ابن قتيبة يقول عن عدى « وعلمناؤنا

لا يرون شعره حجة (١) ، ويترد مثل ذلك عند المرزباني (٢) ، وعند ابن سلام (٣) .

ومن حسن الحظ أننا لا نجد لعدى عند أبي عبيد أكثر من ثلاثة أو أربعة شواهد ، وهو غالبا يرويها عن غيره ، وقد ذكر ابن قتيبة أن في أمية بن أبي الصلت أيضا كلاما ، أما المخضرمون فهم كثيرون عند أبي عبيد ومنهم : حسان بن ثابت ، وأبو ذؤيب الهذلي ، وابن مقبل وسهيم الرياحي ، وأبو العيال الهذلي ، وأبو زيد الطائي ، وأبو خراش الهذلي ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي ، والمخبل السعدي ، ومتمم بن نيرة وغيرهم ، ولا خلاف بين العلماء في الاستشهاد بتلك الطبقة أيضا .

وقد استشهد أبو عبيد بشعر الإسلاميين من أمثال : الفرزدق وجري ، وعبد الرحمن بن حسان ، وعمر بن أبي ربيعة ، والسكيت ، وعمران ابن حطان ، وقحيف العقيلي ، وابن قيس الرقيات ، ومعاذ الهرام ، وابن ميادة وجميل الراعي ، وأمие بن أبي عائذ الهذلي ، والأرقط ، والحارث بن مصرف ونصيب ، وكثير ، ورقية ، والأخطل ، والمرار الفقعسي وابن وهو آخر من يحتج بشعره من الإسلاميين ، وغيرهم .

ولم تكن هذه الطبقة محل إ اتفاق بين اللغويين في الاستشهاد بأشعارها وقد صرح بعض اللغويين بأن أشعار بعضهم لا تعد حجة على نحو ما يرويه

(١) الشعر والشعراء ٢٢٥/١ .

(٢) أنظر : الموشح ١٠٣ .

(٣) أنظر : طبقات فحول الشعراء ١٤٠/١ .

المرزباني من قول الأصمعي في الحكميت (١) ، وما جاء من كلام أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحق ، والحسن البصري ، وعبد الله بن شبرمة من تلحين الفرزدق ، والحكميت ، وذو الرمة ، كما يذكر البغدادى (٢) .

ولئن كان يرى أن الصحيح هو الاحتجاج بشعر هؤلاء ، كما هو رأى إمام أهل العربية الخليل بن أحمد ، وعلى هذا رأى كان أبو عبيد كما هو واضح ، ولا نكاد نرى أثرا لشعر المولدين من أمثال بشار بن برد ، وحفص الأموى ، وأبي نواس في الغريب المصنف ، ولذلك لم يؤخذ عليه ما أخذ على كتاب العين من الاستشهاد بالمرذول من أشعار المحدثين .

أما الشواهد غير المنسوبة فإنها تخضع لمثل ما روى عن سيديويه وبعض العلماء من أنهم كانوا لا ينسبون الشواهد إلى قائلها تخرجها من الخطأ ، والظاهر أن أبا عبيد كان على رأى أولئك الذين لا يرون بأسا من الاستشهاد بالأبيات غير المنسوبة وقد أشار إلى هذا رأى أستاذنا الأكبر الشيخ الخضر حسين فقال : ويحتج بالببيت الذى لا يعرف قائله متى رواه عربى ينطق بالعربية بمقتضى السليقة (٣) . . .

وبذلك يمكن تعليل كثرة الشواهد غير المنسوبة فى الغريب المصنف . فقد أخذها أبو عبيد عن أشهر من عرفوا بالضبط والإتقان أو بالفصاحة والنطق الجيد من الأعراب .

ولكن هل كان أبو عبيد يغير حقا فى ألفاظ شواهد تخرجها وتأثما ؟

(١) الموشح ٣٠٢

(٢) خزانة الأدب ٦/١

(٣) القياس فى اللغة ٣٨

لقد ذكر « بروكلمان » أن القاضي عياض قد ذكر هذا في الشفاء وقال إن أبا عبيد كان ممعنا في التقوى والورع وكان يحرص على تجنب كل خطيئة حتى كان يمحوا ما يجده من الأسماء في أبيات الهجاء التي يسوقها شواهد في مجموعاته اللغوية ويضع بدلا منها كلمات تتناسب مع الأوزان (١) ، وقد شرح الشهاب الخفاجي هذا ومثل لهذا العمل بقول المتنبي :

كأن فعلة لم تم — لا مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب (٢)

ولم يقدم لنا « بروكلمان » ولا « القاضي عياض » ولا شارح شفاؤه مثالا من شواهد أبي عبيد التي حدث فيها هذا التغيير ولم أعثر حتى الآن على مثل ذلك الشاهد وإن كنت أصدق ما يقال في هذا السبيل لما أعرفه عن طبيعة أبي عبيد وأخلاقه .

هذا عن الشواهد الشعرية أما الحديث الشريف فإن الاستشهاد به يعد قليلا بالنسبة للشعر إذ لم أحص منه إلا حوالي ثلاثين حديثا .

وقد استشهد الغويون الأولون قبل أبي عبيد بالحديث ، مثل الخليل بن أحمد ، والفراء الذي كان استشهاده بالحديث كما يقول الدكتور الأنصاري « مظهرا قويا من مظاهر النزعة السلفية (٣) » كما استشهدوا به أيضا بعده كما هو واضح عند الأزهري في التهذيب .

وقد كان العلماء في الاستشهاد بالحديث أقوال وآراء أحسن الأستاذ الأكبر الخضر حسين في عرضها وتلخيصها (٤) وليس هنا محل تفصيل ذلك

(١) تاريخ الأدب العربي ١٥٥/٢ .

(٢) شرح الشفاء م (٤) ص ٤٦٠ .

(٣) الفراء ٨٨/ .

(٤) القياس في اللغة العربية ٣٢ وما بعدها .

إلا أننا نحب أن نذكر أن قلة الاستشهاد بالحديث في مثل هذا الكتاب الذي يعد صاحبه من رجال الحديث ربما كان راجعا إلى طبيعة المصادر التي روى عنها وما كان من تخرج بعض أصحابها نحو تفسير القرآن والحديث وربما كان راجعا إلى طبيعة أبي عبيد وما قام به من تخصيص كتاب اللغة الحديث وغريبه .

وكذلك كان موقفه من الاستشهاد بالقرآن الكريم وقراءاته فلم أعثر فيه إلا على حوالى خمس وثلاثين آية مع ملاحظة تفسير الآية هنا بما يشمل الكلمة فأكثر .

كذلك يستشهد أبو عبيد بالأقوال والأمثال على قلة نسبية أيضا فلم تزد الأقوال التي استشهد بها عن ثلاثين قولاً أو ما يقرب منها .

أما الأمثال فلم أعثر إلا على عدد قليل منها ربما لا يتجاوز عدده عدد أصابع اليد الواحدة ، وقد كان ينسب الأقوال إلى أصحابها وربما لا يفعل أحيانا مكتفيا بقوله : ومن العرب ، أو برجل من قريش أو أعرابي أو فلان .

وقد جرت عادة اللغويين على اعتماد ذلك إذا كان الراوى عدلا ثقة من أهل الضبط والإتقان ، ورواة الغريب كلهم من هذا الصنف ، ونجد بين أصحاب الأقوال اسم الحسن رضى الله عنه وهو وإن لم يكن عربيا فقد بلغ من الفصاحة ما يضعه بين صفوف الذين يستشهد بأقوالهم كما فعل الخليل بن أحمد ومثل هذا يقال عن إبراهيم النخعي .

ولا يظن ظان أن كثرة المصادر ، والشواهد ، والرويات وعزو كل قول من ذلك إلى صاحبه ، يخفى شخصية المؤلف ، فإن أبا عبيد يظهر واضحا في كل كتابه ، فهو إلى جانب قدرته الفريدة على التنسيق والتأليف يعلق ،

ويشرح، ويضيف، ويرجع عند الاختلاف، ويأتي ذلك وغيره بعد عبارة قأليفية هي قوله: «قال أبو عبيد»، وهي عبارة تشكك بعض الباحثين لأنها تخالف ما جرى عليه العرف في مؤلفات عصرنا من عدم ذكر اسم المؤلف في ثنايا الكلام، لكنها تعد سمة من سمات المؤلفات القديمة ويستخدمها المؤلف لذكر أقواله ورواياته.

ولأبي عبيد في الغريب المصنف من ذلك كثير، تختلف أغراضه بين ترجيح واستدلال، وجزم بالصواب، وسؤال واستقصاء، وتنبيه على محظوظ أو على ما يحيز القياس وغير ذلك مما يدل على جوانب الشخصية اللغوية، والتذوق الفني لما يقال ويروى من ألفاظ العربية وتراكيبها وتفصيل ذلك يحتاج إلى وقت طويل.

وقد روى الغريب المصنف عن أبي عبيد كثير من العلماء والتلاميذ، ويذكر لنا ابن خير في فهرسته (١) طريق روايته لهذا الكتاب، فيذكر طريقين إلى أبي علي البغدادي الذي روى الكتاب من طريقين أيضا حدثنا عنهما فقال أولا إنه قرأ هذا الكتاب على أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري في أربعة أعوام وأربعة أشهر وسبعة عشر يوما قال «وحدثني به عن أبيه القاسم بن بشار قال: حدثني به أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي قراءة عليه بسر من رأي قال: حدثني به أبو عبيد»، ثم قال أنه قرأه أيضا على أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي قال: حدثني به علي بن عبد العزيز عن أبي عبيد رحمه الله، ومما لاشك فيه أن أشهر من روى هذا الكتاب عن أبي عبيد هم تلاميذه وعلى رأسهم تلميذاه الكبيران: علي ابن عبد العزيز، وعلي بن عبد الله الطوسي، وقد ترجم لهما كثير من المؤرخين.

(١) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٢٧ وما بعدها.

، وقد كان علي بن عبد العزيز يتصدى لقراءة كتب أبي عبيد بمكة ،
ويأخذ على ذلك الأجر ، كما يذكر صاحب الكفاية (١) ، ومن اشتهر برواية
كتب أبي عبيد منها كتابنا هذا عبد الله بن محمد (٢) ، وعلي بن محمد بن عبد الله
المعروف بأبي القاسم بن أبي جعفر الأديب الأصماني المتوفى سنة ٤٢٧ وقد
سمع هذا الأخير كتب أبي عبيد عن الطبراني (٣) .

وقد كان كثير من العلماء والرواة يحفظ هذا الكتاب على نحو ما روى
عن ابن سيده وغيره ، وكانوا يعدونه أحد أركان علم اللغة ، ويكتبونه .

ومن ثم فقد سالت لنا بعض نسخ منه ، يذكر الندوى في تذكرته
منها :

١ — نسخة في مكتبة شيخ الإسلام بخط جميل نسخت في سنة
١١١٤ هـ .

٢ — نسخة أخرى في ميلان بإيطاليا .

٣ — نسخة أخرى في خزانة أياصوفيا تحت رقم ٤٧٠٦

٤ — نسخة أخرى في الولايات المتحدة .

٥ — نسخة أخرى في الخزانة المصرية (٤) .

ويذكر «بروكلمان» أن الندوى قد اعتمد في بعض هذه النسخ على

(١) الكفاية في علم الرواية ص ١٥٦

(٢) إنباه الرواة ١٤٩/٢

(٣) إنباه الرواة ٣١٠/٢

(٤) قد ذكره النوادر ١٠٧

« كرنكو » ، ويضيف إليها : أنه يوجد مخطوط من الغريب المصنف كتب سنة ٤٨٩ هـ في مجموعة « لندبرج » .

ومخطوط آخر كتب سنة ٣٨٤ هـ في أميروزياناثان ، كما توجد مخطوطات أخرى في أسكوريال ثان ١٦٥٠ ، وفي فاتح ٤٠٠٨ ، وأما زيادة ١٧٩٢ — ١٧٦٤ (١) .

وفي فهرس المحفوظات المصورة يذكر نسخة في ثلاثة مجلدات مصورة عن النسخة الخطية المحفوظة بالدار تحت رقم ١٢١ لغة ، ونسخة ثانية مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة جامعة الزيتونة بتونس ، وقد أشار فهرس دار الكتب المصرية إلى تلك النسخة رقم ١٢١ ، وإلى نسخة أخرى مكتوبة بخط محمد أبي النصر بن السيد يوسف هاشم الجعفرى سنة ١٣١٩ هـ ورقمها (٢ ش) وفي المجمع اللغوى مصورة عن مكتبة الفاتح بتركيا وهى النسخة التى عثر عليها الدكتور حسين نصار فى وصفه للكتاب (٢) .

وقد كان اعتمادى فى دراستى على نسخة دار الكتب ١٢١ لغة ، وهى تقع فى ٥٠٩ صفحة ، وخطها جميل جداً ، وإن كانت أخطاؤها كثيرة وتصحيفاتها متعددة ، وليس بهما ما يدل على اسم ناسخها .

وإن كان قد كتب على ظاهرها « وارد المدينة المنورة » وصفحاتها من القطع المتوسط وعلى هامشها يكتب ما نسيه الناسخ ، بالخط الجميل نفسه ، وكان قد كتب على ظاهرها « الغريب المصنف » لأبى عمرو الشيبانى ، بخط الناسخ نفسه .

ولكن بعضهم أدرك هذا الخطأ وطمس على اسم الشيبانى وكتب النسبة

(١) تاريخ الأدب العربى ١٥٧/٢

(٢) المعجم العربى ٢٠٧/١

الصحيحة ، وقد شرفت يدي بنقل هذه النسخة وكتابتها ، والظاهر أنها ترجع
في روايتها إلى أبي الحسن الطوسي ، تلميذ أبي عبيد السابق ذكره لأن اسمه
يورد فيها عدة مرات ، من أهمها قوله في أحد الأبواب « لم أقرأ هذا الباب
على أبي عبيد ، ولم أسمع منه ، يعني باب تملك الرجل » .

وأبو الحسن هذا هو الذي يقول عنه الزبيدي « وكان من أعلم أصحاب
أبي عبيد » (١) .

وقد راجعت أحيانا نسخة جامعة الزيتونة المصورة بدار الكتب ،
ولاحظت أن المصورة تنقص بعض الكتب في آخرها ، وأنها تختلف عن
نسختنا في الترتيب ، وفي ذكر بعض الأبواب وفي استعمال لفظ باب أحيانا
مكان لفظ كتاب أو العكس .

وقد كان للغريب المصنف أثره الكبير في الحياة اللغوية وفي الدراسات
التي شهدتها ، في القديم والحديث .

فقد عده أصحاب المعاجم والمؤلفات اللغوية من أهم مصادرهم ومراجعهم
بحيث لا نكاد نجد معجما أو كتاباً لغوياً لم يأخذ من أبي عبيد في مصنفه
أو لم ينقل عنه في مؤلفه ، ويمكن أن نشير هنا — مع ملاحظة الإيجاز —
إلى عدد من أعلام اللغويين الذين أفادوا من الغريب المصنف مثل ابن قتيبة ،
وابن السكيت ، والأزهري وابن سيده ، الذي كان يحفظه عن ظهر قلب ،
كما ذكره أنفاً ، وأبي الحسن الهنائي ، ومحمود بن عمر السنجري
وغيرهم .

وقد أسس بعض هؤلاء وغيرهم كتباً ومعجمات لغوية على نظام الغريب

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٥٥ وانظر ترجمته ومراجعها في انباه

الغريب المصنف ، تسكملت بها إحدى مدارس المعجمات ، وظهر بها هذا اللون المعجمي المعروف باسم معاجم المعاني والموضوعات ، وكان أبو عبيد رائده ، وليس ابن السكيت كما يذكر أستاذنا الدكتور علي عبد الواحد وافي (١) .

وكان من أهم هذه المعاجم وأكثرها أثراً وشهرة :

كتاب الألفاظ لابن السكيت ، والألفاظ الكتابية لأحمداني المتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، ومبادئ اللغة للإسكافي سنة ٤٢١ هـ ، وفقه اللغة للثعالبي سنة ٤٣٩ هـ ، ثم المخصص لابن سيده سنة ٤٥٨ هـ .

وقد سار على نظام الغريب المصنف في كل شيء تقريباً مستخدماً كل مادته بحيث يمكن القول بأننا نستطيع استخراج نسخة كاملة من كتاب أبي عبيد من ثنايا المخصص . . .

ومنها كتاب كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ لابن الأجدابي المتوفى قبل سنة ٦٠٠ هـ .

وهو معروف مطبوع ، ومنها في عصرنا الحديث كتاب الإفصاح في فقه اللغة لمؤلفيه الأستاذين عبد الفتاح الصعدي ، وحسين موسى ، وقد اختصاراه من كتاب المخصص لابن سيده وبذلا فيه جهداً استحق ثناء العلامة العقاد .

وقد عني بعض اللغويين بمادة الغريب المصنف فقام بعضهم باختصاره ومنهم : محمد بن علي بن أبي بكر بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الذي

(١) انظر : فقه اللغة ص ٢٦٣

يقول عنه السيوطي : « كاتب بارع اختصر الغريب المصنف فأتقن فيه وأبدع وسماه : حلية الأديب » . توفي (١) سنة ٦١٦ هـ ، ومحمد بن رضوان ابن أرقم النخعي (٢) .

كما قام بعضهم بتقريره ، وتهذيبه ، فقد نقل محقق إقباه الرواة عن إشارة التعيين لابن قاضي شعبة في ترجمة ابن سيده أن له كتابا باسم : تقرير غريب المصنف لأبي عبيد (٣) .

كما ذكر ابن قاضي شعبة أيضاً أن الخطيب التبريزي قد هذب كتب اللغة كالغريب المصنف ، وإصلاح المنطق (٤) .

وعنى آخرون منهم بشرح أبياته وشواهدهم منهم أبو عبيد البكري فقد نسب إليه كتاب عنوانه : صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف لأبي عبيد (٥) ، كما شرح هذه الأبيات أيضاً ابن السيرافي (٦) ، في كتابه : شرح أبيات غريب المصنف لأبي عبيد ، وكذلك قام بعض العلماء بجمعه مع غيره على نحو ما نراه في كتاب لم يعلم مؤلفه جمع كلام أبي عبيد وكلام ابن السكيت ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد ظن العلامة طاهر الجزائري أن اسمه « الجامع » ، وكتب ذلك

(١) بغية الوعاة ج ١ ص ١٧٧ ، وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن الكتاب المختصر هنا هو لأبي عمر الشيباني ج ٢ ص ١٥٨ فتأمل .

(٢) الصحاح ومدارس المعجمات العربية ص ١٠٢

(٣) إنباه الرواة ج ٢ حاشية ص ٢٢٦

(٤) إشارة التعيين ص ٥٨

(٥) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤٣

(٦) فهرسة ما رواه عن شيوخه ص ٣٤٣

بخطه على ظاهر الورقة الأولى من هذه النسخة وهو مقسم إلى خمسة أقسام وهو ناقص من أوله نحو كراسة (١) ، وكذلك في الكتاب المسمى بالجمع بين الصحاح للجوهري والغريب المصنف لإبراهيم ابن قاسم أبي اسحق البليوسي النحوي ويعرف بالأعلم المتوفى سنة ٦٤٢ هـ وقيل سنة ٦٤٦ هـ (٢) ، وكما اختصر بعضهم الغريب على نحو ما ذكرنا سابقا فإن بعضهم قد زاد فيه ، وحشي عليه ، ومن هؤلاء محمد بن أبي جعفر المنذرى وقد سبقته الإشارة إلى ما نسب إليه من كتاب ما زاد في المصنف وغريب الحديث ، وقد أشار الأزهري في مقدمته إلى تلك الزيادة في كتاب « المألف » ، وكتاب الأمثال ، وذكر أنه رواها عنه (٣) ، وقد عثرنا في النسخة التي قرأناها على كثير من الزيادات التي ينسب إليها الناسخ بقوله « حاشية » ثم إذا انتهت قال تحت ، وتكثر هذه الحواشي في أول الكتاب عنها في الأجزاء الأخيرة منه ، وهي تضيف بعض ما يرويه أبو عبيد ، أو تبين المختار في ضبط كلمة منه أو غير ذلك مما يحتاج إليه النص ، ويلاحظ وجود بعض رموز في تلك الحواشي مثل حرف (ص) في الحاشية الرابعة ص ٤ ومثل حرف (ط) في حاشية ص ٧ وربما كانت هذه الرموز تعني أصحاب تلك الحواشي ، وهناك حواشي تذكر فيها بعض أسماء اللغويين ، كما أن هناك بعض التعليقات والزيادات المنسوبة بوضوح إلى الطوسي تلميذ الشيخ وراوييه ، وقد كان للكتاب أيضا شروح من أهمها شرح أحمد بن محمد المرعي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ .

هذا وقد نقده ورد عليه كثير من اللغويين من أشهرهم : اسحق

(١) انظر فهرس دار الكتب ص ٢٨

(٢) بغية الوعاة ٤٢٢/١ وكشف الظنون ٤٠٢/١

(٣) تهذيب اللغة ٢٦/١

الموصلى . فقد ذكروا أن أبا عبيد انصرف يوماً من الصلاة فمر بدار اسحق الموصلى ، فقالوا له : يا أبا عبيد : صاحب هذه الدار يقول لك : إن في كتابك « غريب المصنف » ألف حرف خطأ ، فقال أبو عبيد : كتاب فيه أكثر من مائة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير ، ولعل اسحق عنده رواية وعندنا رواية ، فلم يعلم نخطأنا والروايتان صواب ، ولعله أخطأ ق حروف وأخطأنا في حروف فيبقى الخطأ شيء يسير (١) [كذا] ويألفها من روعة الإعجاب تأخذنا أمام هذا الاعتراف العلنى ، والخلق الإسلامى الجليل ، والظاهر أن أبا عبيد نفسه قد حاول تصويب ما أخذ عليه قبل وفاته فقد ذكر بعضهم أن له كتاباً باسم استدراك الغلط (٢) ، وقد ذكرت قصة اسحق هذه بأكثر من صورة ورواية ، يختلف بعضها عن بعض وبخاصة فيما يتصل بعدد حروف الغريب المصنف وما عابه منها لاسحق .

وقد ذكر الزبيدى (٣) روايتين أحدهما تجعل الخطأ في مائتى حرف من مائة ألف وفيها يقول أبو عبيد « فإن أخطىء في كل ألف حرفين ما هذا بكثير مما أدرك علمنا ولعل صاحبنا هذا لو بدالنا فناظرناه في هذه المائتين بزعمه لوجدنا لها مخرجاً .

أما الرواية الأخرى فإنها تذكر أن اسحق قال « إنك صحفت في المصنف ثيفاً وعشرين حرفاً فقال : ما هذا بكثير في الكتاب عشرة آلاف حرف مسموعة ، فخطط فيها بهذا ليسير ، لعل لو ناظرت عنها لا حتججت فيها » قال أبو بكر محمد : ولما اختلفت هاتان الروايتان في العدد أمرنى أمير المؤمنين رضى الله عنه بامتحان ذلك فعددت ما تضمن

(١) إنباه الرواة ١٩/٣

(٢) قاج العروس ٤/١

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٢٠ وما بعدها

الكتاب من الألفاظ فالفيت فيه سبعة عشر ألف حرف وتسعمائة وسبعين حرفاً (١) .

والظاهر أن هذا الاختلاف في العدد يرجع إلى اختلاف مفهوم الحرف عند أبي عبيد عن مفهومه عند غيره من أصحاب الروايات ، وكذلك ذكروا أن ممن رد على أبي عبيد ، أبا سعيد أحمد بن خالد الضرير البغدادي ومحمد بن هبيرة الأسدي المعروف بصعوداء ، وقد ذكر السيوطي أنه عمل لابن المعتز رسالة فيما أنكرته العرب على أبي القاسم بن سلام ووافقه فيه [كذا (٢)] ويلاحظ أنه ذكر أبا القاسم بن سلام وهو يعني أبا عبيد القاسم فقد جاء في حاشية محقق إنباه الرواة ٨٥/٢ قال ياقوت واختص صعوداً بعبد الله بن المعتز وعمل له رسالة فيما أنكرته العرب على أبي عبيد القاسم بن سلام ووافقه فيه ، وإذا صح هذا فإننا نستطيع الزعم بأن «أبا القاسم» الذي يذكره السيوطي كثيراً هو أبو عبيد ، ويترتب عليه ترجيح نسبة كتاب ما في القرآن من لغات القبائل الذي سبق ذكره إلى أبي عبيد القاسم بن سلام (٣) ، ونعتمد للقارئ عن هذه الاتفاقية لنذكر أن ممن نقد الغريب المصنف أيضاً على بن حمزة البصري في كتابيه الرد على أبي عبيد القاسم بن سلام في المصنف ، والتنبيهات على أغاليط الرواة ، وقد استغرق نقد الغريب المصنف في الكتاب الأخير حوالي ٨٧ صفحة من المطبوع المحقق ، وقد أشار في أوله إلى سبب خطأ أبي عبيد فقال : «واسمنا ننسب إليه رحمه الله كذا ولكننا

(١) المرجع السابق ٢٢١

(٢) بغية الوعاء ٢٥٦/١

(٣) انظر حديثنا عن هذا الكتاب فيما سبق وانظر رأي الدكتور حسين نصار في نسبة هذا الكتاب وفي المقصود بأبي القاسم ح ١ ص ٧٤ من المعجم العربي .

نقول : لم يضبط ماسمع ، (١) ، ومن رد على أبي عبيد أيضاً الحسن بن عبد الله أبو علي الأصفهاني المعروف بالسكدة ويقال لفظة (٢) ، ومنهم أيضاً أبو عمر الزاهد المتوفى سنة ٣٤٥ هـ فقد ذكرنا أن من مؤلفاته كتاب ما أنكرته الأعراب على أبي عبيد القاسم بن سلام فيما رواه وصنفه (٣) ، ومنهم أيضاً أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ذكره في كشف الظنون وذكر أنه رد على الغريب المصنف (٤) .

وهكذا نرى أن الغريب المصنف قد شغل القدماء فعنوا به رواية وحفظاً ، وقراءة ونقداً ، وتهذيباً واختصاراً ، وزيادة وشرحاً ، وتوثيقاً ورداً ، واتباعاً وتقليداً . . . هذا ما فعله القدماء فماذا فعل المحدثون لهذا الكتاب الخطير ؟

الحق أن الغريب المصنف لم يحظ إلى اليوم بالدراسة الوافية الخليقة به وكل ما في الأمر أن بعض الباحثين قد تعرضوا له في بحوثهم على نحو ما فعل الأستاذ الدكتور حسين نصار في بحثه عن المعجم العربي : نشأته وتطوره ولم يكن الغريب المصنف عنده سوى مصدر من مصادر المعاجم التي جعلها موضوع درسه ومن ثم تعرض له على وجه السرعة فقد كرر بعض كتبه وأبوابه ، وعرض لمنهجه فيها ، ومصادره ، وشواهد ، في إشارات سريعة ، كما كانت له إشارات تقتل بالغريب المصنف في أحاديثه عن المعاجم الأخرى ، ومن عرض له كذلك الندوي في نوادر المخطوطات

(١) التنبيهات ص ١٩١

(٢) بغية الوعاة ١/٥٠٨

(٣) إنباه الرواه ٣/١٧٧

(٤) كشف الظنون ٢/١٥٨

والطالبي في دراسته عن المخصص، ومؤرخو الآداب العربية مثل بروكلمان وجرجي زيدان، وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية وغيرهم.

وقد كان الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار — حسب علمي — أول من ذكر أبا عبيد من رواد المعاجم أو المعجمات العربية، وجعله صاحب مدرسة من مدارس المعجمات، بفضل كتابه «الغريب المصنف»، يقول: ولما ألف أبو عبيد غريبه فتح للناس باباً في التأليف اللغوي والتأليف المعجمي لم يكن مطروفاً بحملته، واتبع كثير من المؤلفين طريقته، واتفق في اتباعه القدماء والمحدثون المعاصرون على السواء، (١).

وقد ذكر عطار أن المستشرق الألماني «شبتلر Spitaler» يقوم في هذه الأيام بنشر الغريب المصنف وكان ذلك في سنة ١٩٥٦ م (٢) وقد ذكر الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب منذ وقت طويل نسبياً أن الغريب المصنف بتحقيقه «تحت الطبع»، ولا نعلم حتى الآن متى يتحقق هذا الوعد حتى نرى الغريب المصنف بين أيدي العلماء والباحثين في عصرنا يطلعون عليه، ويفيدون منه ويعطونه ما يستحق من عناية واهتمام.

وبعد فقد آن للقلم أن ينال ترويحاً يسيرة بعد هذا العناء الظاهر مع كتب أبي عبيد ومصادره ومراجعته وبعدها يستأنف السير إن شاء الله ليجلى ما بقى من هذه السيرة العلمية العطرة التي لم تنته بقول عبد الله ابن طاهر: علماء الإسلام أربعة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والقاسم بن معن في زمانه، والقاسم بن سلام في زمانه.

(١) مقدمة الصحاح ص ١٠٠

(٢) المرجع السابق ص ٧٦

ولا بقوله يوم نعى إليه صاحبها :

يا طالب العلم قد مات ابن سلام	وكان فارس علم غير محجاف
مات الذي كان فيكم ربع أربعة	لم يلف مثلهم إستار (١) أحكام
خير البرية عبد الله أولهم	وعامر ولنعم الثنى يا عام
هما اللذان أنافا فوق غيرهما	والقاسمان ابن معن وابن سلام
فإذا بقدر متين لا كفاه له	وخلفاكم صفوفاً فوق أقدام (٢)

رحم الله أبا عبيد وجزاه عن الإسلام والعربية كل خير

عبد الله ربيع محمود

(١) إستار كلمة فارسية بمعنى أربعة .

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢١٩ وما بعدها .

أهم المصادر والمراجع

- ١ - ابن قتيبة العالم الناقد الأديب .
- د . عبد الحميد سند الجندي ، أعلام العرب ، ١٢٢ أكتوبر ١٩٦٣
- ٢ - ابن قتيبة اللغوي : منهجه وأثره في الدراسات اللغوية .
عبد الجليل مفتاظ عودة النيمي - رسالة دكتوراه بكلية اللغة
العربية ١٩٨٣ .
- ٣ - أبو علي الفارسي : حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في
القراءات والنحو :
- د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي ، نهضة مصر ١٣٧٧ هـ
- ٤ - الإتيقان في علوم القرآن :
جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .
- ٥ - أثر القرآن في تطور النقد العربي ،
د . محمد زغول سلام ط ٢ دار المعارف ١٩٦١
- ٦ - الأجناس (كتاب الأجناس)
أبو عبيد القاسم بن سلام . تصحيح إسماعيل علي عرشي حيدر آباد - الهند
- ٧ - أساس البلاغة
جار الله الزمخشري ، مطبعة دار الكتب ١٩٧٢

٨ — إشارة التعيين إلى تراجم النحاة واللغويين .

الإمام أبو المحاسن عبد الباقي النجفي مخطوط بدار الكتب

٩ — ألف بام

أبلوى يوسف بن محمد . عالم الكتب بيروت

١٠ — الأمثال في الغرر العربي القديم

د. عبد المجيد عابدين الطبعة الأولى - مكتبة مصر

١١ — الأموال : أبو عبيد القاسم بن سلام تحقيق محمد خليل هراس

ط ٢ - ١٩٧٥

١٢ — إنباه الرواه على أنباه النحاة

جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطى ، تحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم ط (١) دار الكتب المصرية

١٣ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة

جلال الدين عبد الرحمن السيوطى . الطبعة الأولى وبتحقيق محمد أبو الفضل

إبراهيم الطبعة الأولى كذلك

١٤ — البلغة في شذور اللغة

نشرها د. أوغست هفتر والأب لويس شيخو - بيروت سنة ١٩٠٨

١٥ — تاج العروس

السيد محمد مرتضى الزبيدي دار صادر بيروت سنة ١٩٦٦

١٦ — تاريخ الأدب العربي

كارل بروكلمان ترجمة الدكتور محمد عبد الحلیم النجار دار المعارف

الطبعة الأولى

١٧ — تاريخ آداب اللغة العربية

جورجي زيدان تعليق د. شوقي ضيف — دار الهلال بالقاهرة

١٨ — تاريخ بغداد

الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، الطبعة الأولى —
الخانجي وشركاه ١٩٣١

١٩ — تاريخ التراث العربي

فؤاد سركين ت د. فهمي أبو الفضل الهيئة المصرية العامة للكتاب
سنة ١٩٧١

٢٠ — تذكرة الحفاظ

الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي . الطبعة الثانية حيدر آباد
سنة ١٣٣٣ هـ .

٢١ — تذكرة النوار من المخطوطات العربية

السيد هاشم الندوي حيدر آباد سنة ١٣٥٠ هـ

٢٢ — التذهيبات (على أغاليط الرواة)

علي بن حمزة تحقيق عبد العزيز الميمني دار المعارف بمصر

٢٣ — تهذيب الأسماء واللغات

أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي عني بنشره وتصحيحه
والتعليق عليه ومقابلة أصوله شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية
بمصر .

٢٤ — تهذيب التهذيب

الحافظ ابن حجر العسقلاني ، الطبعة الأولى حيدر آباد سنة ١٣٢٦ هـ .

٢٥ - تهذيب اللغة :

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى > تحقيق الأستاذ عبد السلام
هارون - المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٤ .

٢٦ - خزائن الأدب ولب لبان لسان العرب :

عبد القادر بن عمر البغدادي تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام هارون،
دار الكتائب العربى ١٩٦٧ .

٢٧ - الخيل و كتاب الخيل ، :

الأصمعى عبد الملك بن قريب ، نشره « هفز » فى فيينا سنة ١٨٩٥ .

٢٨ - الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث محمد حسين
آل ياسين بيروت سنة ١٩٨٠ .

٢٩ - دلالة الألفاظ :

د. إبراهيم أنيس الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ .

٣٠ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب .

أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى - مكتبة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٣١ - شرح الشفاء للقاضى عياض :

شهاب الدين الخفاجى > سنة ١٣١٥ هـ .

٣٢ - الشعر والشعراء :

ابن قتيبة تحقيق وشرح الشيخ أحمد محمد شاكر دار المعارف سنة ١٩٦٦ .

٣٣ - صبح الأعشى :

القلقشندي ط مصوره عن الطبعة الأميرية .

٣٤ — الصحاح ومدارس المعجمات العربية :
أحمد عبد الغفور عطار الطبعة الأولى .

٣٥ — طبقات ابن قاضي شهبة :
مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٦٨ .

٣٦ — طبقات الحنابلة :
القاضي أبو الحسين محمد بن أبي يعلى تصحيح محمد حامد الفقي مطبعة السنة
المحمدية ١٩٥٢ .

٣٧ — طبقات الشافعية :
عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية
بالقاهرة .

٣٨ — طبقات فحول الشعراء :
محمد بن سلام الجمحي ، قرأه وشرحه الأستاذ محمود محمد شاكر طبعة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

٣٩ — طبقات المفسرين :
محمد بن علي بن أحمد الداودي المالكي مخطوط دار الكتب المصرية
تحت رقم ١٦٨ تاريخ .

٤٠ — طبقات النحويين واللغويين :
أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة
الأولى سنة ١٩٥٤ .

٤١ — عيون التواريخ :

ابن شاكر مخطوط بدار المكتب المصرية تحت رقم ١٤٩٧ تاريخ .

٤٢ — غاية النهاية في طبقات القراء :

شمس الدين ابو الخير محمد بن الجزري، نشره ج . برجستراهمر . الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢ والثالثة سنة ١٩٨٢ .

٤٣ — غريب الحديث :

أبو عبيد القاسم بن سلام مطبوع بحيدر آباد — الهند سنة ١٩٦٤ .

٤٤ — الغريب المصنف :

أبو عبيد القاسم بن سلام مخطوط تحت رقم ١٢١ اخة بدار المكتب المصرية ومنه نسخة بمكتبتي .

٤٥ — فتح الباري :

الحافظ ابن حجر العسقلاني دار الفكر .

٤٦ — القراء (أبو زكريا) ومذهبه في النحو واللغة :

أحمد مكي الأنصاري ط ١ سنة ١٩٦٤ .

٤٧ — فصل المقال في شرح كتاب الأمثال :

أبو عبيد البكري الأونبي تحقيق وتقديم د . عبد المجيد عابدين ود . إحسان عباس الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ .

٤٨ — فقه اللغة :

د . علي عبد الواحد وافي الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠ .

٤٩ — فهارس البخاري :

الأستاذ رضوان محمد رضوان مطبعة دار الكتاب العربي بالقاهرة .

٥٠ — فهارس دار الكتب المصرية .

٥١ — فهرسة مارواه عن شيوخه .

أبو بكر محمد بن خير بن عمر الإشبيلي، وقف على نسخته وطبعه الشيخ
فرنسشكه قداره وقلبيذه طبعة جديدة عن الأصل المطبوع سنة ١٨٩٣ .

٥٢ — الفهرست :

ابن الفديم ، المكتبة التجارية الكبرى .

٥٣ — القياس في اللغة :

الأستاذ الأكبر الخضر حسين ، المطبعة السلفية القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

٥٤ — كشف اصطلاحات الفنون .

التهانوي . بيروت ١٩٦٦

٥٥ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

ملا كاتب جلبي (حاجي خليفة) الطبعة الأولى سنة ١٣١٠ هـ .

٥٦ — الكفاية في علم الرواية .

حيدر آباد سنة ١٣٥٧ هـ .

٥٧ — لحن العامة في الدراسات اللغوية الحديثة .

د. عبد العزيز مطر ، دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٦٧ .

٥٨ — لطائف الإشارات :

شهاب الدين القسطلانى تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان والدكتور

عبد الصبور شاهين القاهرة سنة ١٩٧٢ .

٥٩ — مجلة المجمع العلمي العربي .

السنة الثالثة عشرة .

٦٠ — المخصص .

ابن سيده مطبعة بولاق سنة ١٣٢١ هـ .

٦١ — المخصص لابن سيده : دراسة ودليل :

محمد الطالبي : تونس سنة ١٩٥٦ .

٦٢ — مراتب النحويين :

أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم نهضة مصر القاهرة .

٦٣ — المزهري في علوم اللغة وأنوعها .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين ، مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة .

٦٤ — معاني القرآن وإعرابه :

الزجاج شرح وتحقيق د. عبد الجليل شلبي ، القاهرة سنة ١٩٧٤ .

٦٥ — معجم الأدباء :

ياقوت الحموي ط دار المأمون .

٦٦ — المعجم العربي : نشأته وتطوره :

د. حسين نصار الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ والثانية سنة ١٩٦٨ — مطبعة مصر . القاهرة .

٦٧ — مقاييس اللغة :

ابن فارس أبو الحسين أحمد تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣ .

٦٨ - المنقوص والممدود

الفراء تحقيق عبد العزيز الميمنى دار المعارف بمصر .

٦٩ - الموشح :

المرزبانى أبو عبد الله محمد بن عمران تحقيق على محمد البجاوى دار
نهضة مصر سنة ١٩٦٥ .

٧٠ - النشر فى القراءات العشر :

أبو الخير محمد بن محمد الدمشقى الشهير بابن الجزرى تصحيح ومراجعة
الشيخ على الضباع - دار الكتب العلمية - بيروت .

٧١ - النهاية فى غريب الحديث والأثر :

لأبى السعادات مجد الدين بن الأثير تحقيق طاهر أحمد الزواوى ومحمود
محمد الطناحى - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه .

٧٢ - وفيات الأعيان :

ابن خلكان تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية
سنة ١٩٤٨ .

شُبُهَاجُ بَرِّينَ سَكِينَاءُ
در استتارِ بختِ جنتی نہایتِ عصِ المملوکی

بقلم

دکتر

احمد الحفناوی

استاذ التاريخ الاسلامی

أرض مباركة ، تلك المنطقة التي اختارها الله عز وجل ، لتدور عليها تلك الحوارات الفكرية في البحث عن ذاته ، ففوقها تحاور الفسك المهرى القديم ، ينظر إلى السماء ويأخذ البحث إلى مخلوقات الله التي تحمل قدراته فيعبدها ، ثم يتردد ، عندما يرى قصورها ، وفوق الأرض نفسها ، سارت خطوات الأنبياء والرسل ، خطأ فوقها إبراهيم الخليل ، أبو الأنبياء هرباً من العراق إلى مصر بحثاً عن أرض صالحة لدعوته ، وفرقها ، مشى يوسف الصديق ، يحمله التجار بعد أن اقتشلوه من البئر ، ليبيعه في مصر ، وتبعه أبوه يعقوب ، بعد أن أصبح يوسف وزيراً ، ثم كانت خطوات موسى عليه السلام فوق أرض سيناء هرباً من فرعون مرة ، ثم عائداً إليها يحمل دعوته ، بعد أن دار أعظم حوار بين الله الخالق العظيم وبين موسى الإنسان ليتلقى كلمات ربه ، ولتكون رسالته للناس بنزول دين .

هكذا ظلت سيناء مهبطاً للرسالات وطريقاً لخطوات الأنبياء والمرسلين .

• • •

سيناء الأرض والإنسان :

يطلق اسم « سيناء » على رقعة الأرض التي تمتد على شكل مثلث ، ترتكز زواياها الثلاث على رفح وبور سعيد في الشمال ، ورأس محمد في الجنوب ، والضلع الشمالى من بور سعيد إلى رفح يمتد على مساحة تزيد قليلاً عن ٢٠٠ كيلو متر . أما الضلع الشرقى فيبدأ من رفح ماراً ببئر المغارة وتميلة والقطارة إلى رأس طابا على خليج العقبة ، ثم يسير بمحاذاة الخليج إلى رأس المثلث في النقطة المسماة « رأس محمد » .

وأما الضلع الثالث من بور سعيد غرباً إلى « رأس محمد » جنوباً ، فإنه يخترق خطاً بمحاذاة قناة وخليج السويس .

ومحيط سيناء متكون من ١١٠٠ كيلو مترا : ٢٠٠ على البحر المتوسط ، ٢٦٠ كيلو مترا بمحاذاة قناة السويس ، ٢٤٠ كيلو مترا بمحاذاة خليج السويس ، ١٦٠ كيلو مترا بمحاذاة خليج العنبة ، ٢٤٠ كيلو مترا في الخط الفاصل الشرقي ، وتبلغ مساحة شبه الجزيرة في مجموعها ٤٠٠٠٠ كيلو مترا مربعا .

وقد اختلف المؤرخون حول أصل كلمة : سيناء ، فقال بعضهم : أن معناها « حجر » ، أى بلاد الأحجار ... وقال البعض الآخر : أن الاسم مأخوذ من كلمة « سين » ومعناها بالعبرية « القمر » ، لأن أهالى تلك المنطقة كانوا يعبدون القمر .

غير أن هذا التفسير غير مقبول ، إذ أن كلمة « سين » لاتعنى فى العبرية « القمر » ، وإذا فرض أن أخذها اليهود من لغة أهل البلاد ، فلا يعقل أن يكونوا قد أعطوا تلك التسمية لجبل الرب .

والتوراة لم تستعمل كلمة سيناء لتعريف المنطقة ، بل أطلقت على شبه الجزيرة اسم « حوريب » ، أى الخراب ، واكتفت بإطلاق هذا الاسم على أحد الجبال .

وأما عند قدماء المصريين ، فلم يكن اسم سيناء معروفا وليس فى استطاعتنا التأكيد بصفة قاطعة من الاسم الذى أطلقوه على تلك المنطقة .

وقد عبر عنها القدماء أحيانا بكلمة « شوشوبت » ، أى أرض العراء وأحيانا أخرى اكتفوا بتسميتها « مساحة الفيروز » أو « بيت سينفرت » .

وقد عرفت أرض الطور منذ القدم باسم « ريثو » ، وأطلق على السكان اسم « شاسو » .

وفى الآثار الآشورية عرفت شبه الجزيرة باسم « مجان » ، وفى

النحوت الهيروغليفية للأميرة الحادية عشرة ، ورد اسم « طنجهت » لتلك المنطقة ، واستعملت في نصوص أخرى كلمة « بياو فت » .

على أن بعض علماء الآثار حاول تفسير كلمة « سيناء » بأنها مشتقة من « سفدو » ، فالأحرف المنحوتة على أحجار مرابت الخادم تشير إلى عبارة « صفدو » وهذه الاله هو أول من يقابله المصري العائد إلى وادى النيل ، ويفسر ذلك وجوده في شبه الجزيرة .

فهل « صفدو » أصل كلمة « سيناء » ؟

إنه إذا صح ذلك ، يكون الاله « صفدو » قد أعطى اسمه للمنطقة التي يبدأ منها المصري رحلته إلى كنوز الفيروز والنحاس .

• • •

ومنذ فجر التاريخ كان العنصر العربي في تلك المنطقة ، فحمل ذلك تارة إلى تصوير الاله « صفدو » على شكل الاله « هور » — « وفعلأ أخف الاله أحيانا شكل صقر — وتارة على شكل رجل ملتج على رأسه شعر مستعار مربوط برباط من الخلف ويحمل ريشتين وفقا لشكل الصنم الذي كان يعبد من رجال الصحراء (١) .

وأطلق الاغريق على المنطقة كلها اسم « أرايبا بيترا » أي بلاد العرب الحجرية ، وظهرت تلك التسمية في مؤلفات الجغرافى بطليموس ، وأطلقت على كل الأراضى الواقعة جنوب غربى بادية الشام .

ومهما يحكى من أصل التسمية ، فالذى يهمنا هو أن تلك المنطقة — سواء كان اسمها « ترشويت » أو « رايتو » أو « سيناء » أو بلاد العرب الحجرية أو « صفدو » — كانت تربطها بوادى النيل روابط قوية تجعل منها جزءا مكملا لها ، وذلك بالرغم من أن سكانها كانوا يختلفون عن المصريين في أسلوب المعيشة واختلاف البدو عن أهل الحضر .

وسيناء في كلتا الجهتين هي الطريق المؤدى إلى الحضارة بطرقه المهاجرون من أهل الصحراء إلى بلاد الرفاهية والثراء ، ويطرقها رجال الوادي إلى حيث يجدون نوعاً آخر من الثراء المدفون في وسط الصحراء .

فالصحراء الممتدة بجانب مصر الثابتة قد كد الوجود المصري بتأثيره الخالد العميق الذي يجلب إليها البدو ، وينتظر إليها أولئك الرجل بعين الإعجاب والحسد .

وتعتبر سيناء حصن مصر المنيع وطريق الغزوات سواء منها ما جاءت من آسيا إلى أفريقيا أو التي تحركت من مصر إلى فلسطين وبلاد الشام ، وقد وصفها نعيم شقير : « بأنها قنطرة النيل إلى الأردن والفرات... » (٢) .

كما أنها أدت دوراً هاماً في تاريخ مصر منذ مهد التاريخ . . . ولكن بالرغم من تلك الأهمية الحيوية ، يندر من يعرف عنها أكثر من اسمها !!

فالمتعلمون من العرب اكتفوا بتداول بعض المعلومات الأولية ، مختلطة ببعض الأساطير على مر الأجيال ، كما دوتها الكتب القديمة .

فإذا ما وصل إلى علمهم : أن شبه الجزيرة أرض جرداء بها جبال شاذخة تشقها بعض الوديان ، ويقطنها بعض الأعراب الرحل ، قنعوا بذلك ووجدوا فيه الكفاية !!

وإذا أضافوا إلى تلك المعلومات بعض ما جاء في الكتب المقدسة ورددوها دون إمعان ، اعتبروا أنفسهم من العارفين بكل الخفايا !!

* * *

على أن أول محاولة لوضع خريطة لشبه الجزيرة ترجع إلى القرن الثالث ، وهذه الخريطة أصلاً كانت خريطة لطرق الإمبراطورية الرومانية والعالم

القديم رسم عليها رسم لروما سيدة العالم ممثلة على شكل شاب جميل يرتدى رداء الإمبراطور ويمسك بيده الكرة الأرضية .

وقد وضح فيها خليج العقبة والسويس في موقعهما الصحيح كما ظهر جبل سيناء في موقعه المعروف الآن ، وفيما عدا ذلك لم تشر الخريطة إلى شيء .

كانت هذه الخريطة مسلسلة للعالم بوترنجر وهي بدار الكتب بفيينا وطولها ٦ أمتار ، ٨٢ سنتيمتراً ، وعرضها ٣٤ سنتيمتراً ، قسمت إلى ١٢ قطعة هالكت منها القطعة الأولى .

وفي القرن الحادى عشر تقريباً ظهرت خريطة باسم « بياتس » وضح فيها كلمة « سينوس أرابيكوس » ، أى سيناء العربية . ووصف الكتاب العرب موانى البحر الأحمر ، فقد كروا موانى كاثوم وآيلة ، وفي سنة ٩٧٧ نقل ابن حوقل ما كتبه من قبل ابن خرداذبه الاشترى ، وذكر المسعودى أن موسى قائد اليهود فى صحارى التيه ، وكتب لأول مرة اسم « شعيب » ووصفه بأنه عربى وهو كاهن مدين ، وأما ابن إياس فقد أضاف اسم « بركة غرندل » ، وظل الكتاب العرب يتماقلون الأسماء ، وفي سنة ١١٥٣ نقل الإدريسى فى نزهة المشتاق ما سبق أن ذكره المسعودى ، وتبعه ابن جبير فى سنة ١١٨٣ وياقوت الحوى سنة ١٢٢٦ فى كتابه معجم البلدان وشمس الدين الدمشقى مرددين نفس التفاصيل دون إضافة شيء جديد (٣) .

وفى القرن الرابع عشر أعد « مارينو سانودو » عدة خرائط أوضح فيها لأول مرة دير سانت كاترين . . ويعتبر مارينو أول من وضع خطة للاستعمار الأوربى للسيطرة على مصر ، ففى كتاب له أهداه إلى البابا الكاثوليكي فى روما سنة ١٤٢١ ، اقترح على الدول المسيحية احتلال مصر نظراً لموقعها الجغرافى ، ووضع خطة عملية للقضاء على إمبراطورية المماليك (٤) . وكان غرضه الأساسى من الدعوة إلى هذا العمل العدوانى هو

قطع الطريق بين التجار العرب الذين كانوا يصلون بضائع الهند إلى عدن حيث يدخلون البحر الأحمر إلى خليج السويس أو إلى الطور، ومن هناك تحمل القوافل تلك البضائع إلى الاسكندرية حيث يتسلها التجار الإيطاليون ولا سيما تجار البندقية، ولا يخفى على الباحث الدور الهام الذي كانت تمثله سيناء بالنسبة لتجارة الشرق الأقصى مع أوروبا.

في هذا الوقت ظهر كتاب أبو الفدا في الجغرافيا، وبعد قليل تلاه كتاب ابن خلدون (٥)، وأضيفت في هذه المؤلفات بعض الملاحظات عن التربة التي تربط السويس بالنيل، وعن ميناء آيلة والشواطئ المتاخمة لخليج العقبة.

ويلاحظ في خريطة «جاستالدي» التي ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي، أنه قد سجل فيها: جبل سيناء ويران والطور، كما وصفها الكتاب العرب، إلا أنه بالرغم من ذلك كانت الخرائط الأوربية متخبطة في تحديد الأماكن ففي بعضها ظهرت الطور في نهاية الخليج الشرقي، وفي البعض الآخر ظهرت «يران» مكان «الطور». ولم تذكر تسمية «رأس محمد» إلا مؤخراً في القرن الثامن عشر الميلادي، كما لم تظهر عيون موسى وغرنديل على الخرائط على الضفة الغربية إلا في هذا القرن.

وظلت الأمور على حالها إلى أن نشرت بعثة بالمر الخريطة المشهورة لسيناء سنة ١٨٦٨ م وكانت تشمل:

- ١ — خريطة عامة لشبه الجزيرة.
- ٢ — خريطة جيولوجية.
- ٣ — خريطة للمنحدر الغربي حتى الجبال المحيطة بدير سانت كاترين.
- ٤ — مجموعة خرائط منفصلة لوادي فيران وجبل السريال.

كل تلك الجهود لم تسكن كافية، فقد ظلت طرق كثيرة في شبه الجزيرة غير معلومة.

وقد ظلت خريطة سيناء طوال هذه المدة تفتقر إلى الدقة ، لأن خط التجارة البحرية القادم من المحيط الهندي كان يمر من الناحية الغربية ، نظراً لأن المدخل الشرقى كان ضيقاً لا يافت الانتباه ، فكانت تهمله البواخر القادمة من باب المنذب إلى السويس .

ومنذ خريطة « بيترى » سنة ١٩٠٥ م توالى خرائط موضوعه على أسس علمية كاشفة جميع النواحي الجيولوجية والطبيعية لشبه الجزيرة تقريباً .
وتنقسم شبه الجزيرة من الوجهة الجيولوجية إلى :

١ — بلاد العريش في الشمال .

٢ — بلاد التيه في الوسط .

٣ — بلاد الطور في الجنوب .

وتختلف طبيعة كل جزء منها اختلافاً كلياً .

فبلاد العريش : عبارة عن سهول شاسعة الرمال في جزء صالح للزراعة، وقد أطلق عليها المؤرخون العرب (٦) اسم « الجفار »، لكثرة الجفار « جمع جفر » ، وهى الآبار الواسعة التى لم تبث بالحجارة ، وأهم فروع وادى العريش هى : وادى أبو متيقنة ، ووادى الرواق ، ووادى البروك ، وقد جاء ذكر وادى العريش فى التوراة تحت اسم « وادى مضر » (٧) .

وببلاد التيه : عبارة عن حائط هائل يسكاد يسكون مستحيل العبور ومنحدر تدريجياً نحو الشمال ، وتتكون من سهل عظيم جامد التربة ، تتخلله بعض الجبال ، ويفصل بين هذه المنطقة والمنطقة الثالثة سلسلة من الجبال تعرف بجبال التيه .

أما بلاد الطور : فأشهر جبالها : جبل طور سيناء وجبل موسى وجبل المناجاة ، وجبل سرايت الخادم ، وهذا الجزء من شبه الجزيرة مساحته ١٦ ألف كيلو متراً مربعاً ، وهو الأكثر وعورة فى سيناء ، بل فى العالم .

ومناخ شبه الجزيرة جاف تشتد فيه البرودة شتاء والحرارة صيفاً ،
وتنبت فيه الفواكه والمحاصيل ، حيث توجد المياه بسهولة . وأهم الأشجار
في سيناء « النخيل » ، حيث يكثُر في العريش وبلاد الطور ، وكذلك
يوجد « الدوم » وقد قدر عدد النخيل في أوائل هذا القرن بحوالي مائة
ألف نخلة (٨) .

كذلك توجد الفواكه : كالعنب والرمان والبرتقال واللوز والخوخ
والتماح والمشمش ، وفي حدائق دير سانت كاترين تنمو كل تلك الأصناف .
ويزرع عرب سيناء على المطر الشعير والقمح والذرة الرفيعة . كما أن هناك
أعشاب برية ترعّادها الإبل ، وهناك من الحيوانات الأليفة في شبه الجزيرة :
الإبل والخيول والحمير والبقر والغنم والكلاب ، وأكثر الحيوانات إنتشاراً
هي الغنم من الضأن والماعز . أما الحيوانات البرية فأكثرها إنتشاراً : الذئب
والضبع والثعلب ، وتوجد بكثرة أنواع من الحمام البري . وفي العريش
« ذهابة الإبل » ، وهي طويلاً الأجندة وسامة إذا ما لمست الجمل قتلته
أو هزله ، وقد ظلت شبه الجزيرة أجيالاً طويلة مهملة رغم الامكانيات
الهائلة التي تتمتع بها ، وقد آن الأوان ، لدراسة هذه الامكانيات والبدء في
استغلالها على الوجه الأكمل .

* * *

ولا شك في أن أصل سكان سيناء يرجع إلى العنصر العربي ، فكلمة
« عرب » في اللوحات الآشورية تعني شعباً من الرحل يعيش في الصحراء ،
وفي مؤلفات الاغريق جاء ذكر عربي ، كقائد جيش أحد ملوك الفرس ،
ويطلق هيرود قوس ومن بعده الكتاب الاغريق والرومان على كل سكان
شبه الجزيرة وعلى سكان صحارى مصر اسم « عرب » : ويبدو أن لفظ
« عرب » أطلق على جميع الشعوب الناطقة باللغات السامية في كل الشرق
الأوسط ، (٩) ، وتتكلم الكتابات النبطية والآرامية عن امرئ القيس فتصفه

بأنه ملك كل العرب . أما أقدم القبائل الأصلية ، فهي : الحمضة والتبعية والمواطرة ، والحمضة ، يجتمعون في وادي « فيران » وهم أسياد البلاد الأصليين ولا يزيد عددهم عن بضعة عائلات ، أما التبعية فتقطن بلاد الطور ، وأما المواطرة فربما كانوا بقية نصارى « فيران » .

وقد دخلت هذه القبائل وغيرها في حمى العرب الفاتحين وأخذت لغتهم وديانهم وعاداتهم . ولجأوا إلى المغاور والكهوف في منازل محكمة البناء من الحجر والباين تعرف عند العرب « بالغواميس » ، ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم .

وكانت بعد العصر الفرعوني قد تكونت في شبه الجزيرة عدة ممالك أشهرت في التاريخ — إلا أنها وإن كانت عربية أصلاً ، تأثرت بالحضارة الآرامية الإغريقية ، وأول تلك الممالك النبط التي أنشأت دولة تمتد من خليج العقبة إلى البحر الميت شمالاً ، ويدخل في حدودها شمال الحجاز .

وقد اعتنق بدو سيناء الإسلام غير أنهم يؤمنون بإيماناً راسخاً بالأولياء ، فكلما مات منهم شيخ اعتبروه رجلاً صالحاً وبنو له ضريحاً محلي بقبة ، ومع ذلك فإنهم يكتبون بذكر اسم الشيخ ، ولا يعرفون شيئاً عن ذكرى سيرة الولي أو أعماله وفضائله .

وكان في العريش تقليد : يقدم فيه البدو للبحر الذبائح ، ولا شك أن هذا التقليد يرجع إلى عهد الوثنية ، حيث يقيمون احتفالاً بعد الربيع سفوياً يزورون فيه البحر بخيامهم ومعهم خيامهم وغنمهم ويفسلونها بماء البحر ، ثم يذبحون الذبائح ويرمون رؤس الذبائح وأرجلها وجلودها في البحر قائلين عند رميها « هذا عشاك يا بحر !! » أما باقي اللحم فيطبخونه ويأكلونه ويطعمون منه المارة .

وعلى نصف ساعة من العريش غابة صغيرة ، يزورها البدو للتبرك وهم
ينثرونها ويودعون عندها حبالهم وأشياءهم .

وبجانب تلك الأساطير الوثنية التي تأثرت بها البيئة الإسلامية في سيناء ،
هناك معتقدات امتازت بها كافة المجتمعات البدائية .

وقد حاولت الحكومة في مصر محاربة هذه المعتقدات وتلك الأساطير
في بعض مناطق سيناء كمدن : الطور والعريش وغيرها ، بإنشاء المدارس
والمساجد ، ولمكن يبدو أن البدو في شبه الجزيرة بوجه عام — في عصر
ما بعد التحرير — في حاجة ماسة إلى زيادة الاهتمام بشؤونهم والتركيز
على قضاياهم .

. . .

بدأت مصر في استغلال معادن سيناء والتوغل في مجاهلها منذ أكثر
من ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، وكان السكان الأصليون فقرا من الرحل
المتنقلين بين الأودية بحثا عن الرزق يمشون حفاة ، ويشدون أوساطهم
بالأحزمة ، وكانوا يتاجرون مع مصر تجارة بدائية ، وكثيرا ما كانت
قبائلهم تغير على الأراضي المصرية فينهبون الأطراف الخصبة الملاصقة
للصحاري ، ثم يفرون بغنائمهم إلى مجاهل الرمال المترامية .

وهناك من النصوص القديمة ما يثبت أن مصر كانت تأويهم إذا
ما جاءوا سالمين ، ففي لوحة من ملوك الأسرة الأولى نشاهد بعض البدو
يلتمسون قبولهم بمصر ، وقد أعياهم الجوع فيقرر فرعون ايوائهم ، وفيما
يلي نص القرار :

أولئك البدو حل محلهم آخرون ضربوا ديارهم وأحرقوها .
يلجأون إلى جلالة العظيم رافع سيفه إلى الإمام .

قائلين : أن بلادهم في قحط مدفع حتى أنهم يعيشون مشردين كحيوانات الصحراء . ويأمر الملك قائلا : أن عددا من البدو جاءوا إلى بلاد فرعون لأنهم لا يستطيعون العيش وقد أواهم . وفقاً للتقاليد الموروثة من آباء الآباء ، (١٠) .

وقد أدى هذا إلى تسرب عدد كبير من سكان وادي النيل إلى شبه الجزيرة مما كان له الأثر في خلق صلات وثيقة بين مصر وسيناء ، ولما عثر الأهالي الأصليون على الفيروز والنحاس والحديد استحضروا كميات منها إلى مصر وباعوها في مقابل الحصول على المنتجات الزراعية ، فكان هذا أول تبادل تاريخي ، كما كان مصدر إهتمام مصر بسيناء ، ومنذ عهد الأسرة الأولى بدأت الحملات المنظمة إلى شبه الجزيرة ، فما كادت تتوحد مصر شمالا وجنوبا في ظل حكم ملوك قوي حتى بدأت الحضارة المصرية تتطور وتتجه بسرعة إلى استغلال موارد سيناء .

ومنذ عهد الأسرة الحادية عشرة تمصرت سيناء تمصيرا تاما ، فعلى صخرة بالمخارة نجد الملك شاخصا أمام إلهي سيناء « توت » و « هاتور » ونقرأ العبارة الآتية :

« في تلك المخارة وجد الفيروز اللامع » .

و كانت هاتور الالهة الكبرى التي يعبدونها الجميع ، ولقبت شبه الجزيرة بلقبها حين تقرر تلقيبها « بسيدة الفيروز » ، فهل كانت هاتور سيدة السكان الأصليين وآلهتهم ؟

و كانت الطرق التي استخدمها المصريون إلى سيناء بحثا عن التعدين وعن الفيروز هي :

١ - الطريق البري ، بمحاذاة الساحل الشمالي والجنوبي لخليج العقبة .

٢ — الطريق البحري من خليج السويس .

٣ — عبور الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر ، بالمراكب إلى ساحل سيناء .

على أن أول طريق سلحكموه هو الطريق البحري . . . وعلى مر الأيام بدأت طرق جديدة تسلك في أنحاء سيناء على يد النبط . ومنذ هاجم الهكسوس الأراضي المصرية واحتلوها ، ظهرت إلى النور حقيقة مركز سيناء كخط دفاعي لمصر ، ومنذ ذلك فهم الفراعنة الدرس القاسي ، فكافت استراتيجية ملو كهم تتلخص في :

« هاجم حتى لا تهاجم . انقل الحرب إلى ما وراء سيناء حتى لا تضطر إلى الحرب في داخل وادي النيل . . » . بدأت الحملات العظمى التي خلدت ذكرى فراعنة الأسره الثامنة عشر والتاسعة عشرة والعشرين ، وظلت فكره مد النفوذ المصري — من سيناء — إلى فلسطين وسوريا متسلطة على مصر ، وانتهى بذلك عهد الاكتفاء ببناء الأهرامات والهيكل الضخم لتقديس الآلهة والتفرغ إلى الفنون والحياه الزراعية الرخدة السعيدة . . . ودخلت منذ ذاك التاريخ البعيد ميدان المنازعات الدولية ، واحتلت سيناء — بذلك — مركزا كبيرا في « الاستراتيجية » المصرية .

سيناء قبل الإسلام

امتزجت العقائد المصرية والسامية في شبه الجزيرة ، وكان التقليد الديني في الطقوس موجوداً قبل سيرة بنى إسرائيل ، فقدس الأقداس يقابله في معبد « سرايت الخادم » والكهف والقدس يقابله الهيكل ودار الخيمة يقابلها دار الهيكل ، كذلك كانت الطقوس التي تستعمل في المعبد المصرى طقوساً سامية يألفها شعب موسى .

والاختلاف الوحيد الذى لاحظناه الباحثون ، هو أن باب خيمة موسى كان يتجه إلى الشرق لا إلى الغرب ، كما كان الحال بالنسبة لمعبد سرايت الخادم بالمصرى كان يعبد الآلهة بالطقوس السامية ، ولكنه كان يوجه وجهه نحو بلاده ، أما موسى فكانت وجهته الشرق بحثاً عما يسمونه « أرض الميعاد » . . .

وجاء هيكل سليمان ليبنى بعد خمسمائة سنة تقريباً على غرار الخيمة ، ويحلمانا هذا على الاعتقاد بأن هيكل سليمان صمم على نموذج معبد سرايت الخادم ، . . .

والواقع أن امتزاج العقائد السامية بالمصرية خلق تراثاً مشتركاً ، حاول الإسرائيليون طوال تاريخهم التخلص منه بدون فائدة . . . وكان وقوفهم ضد العناصر السامية الأخرى التي امتزجت بالحضارة المصرية سبباً في عزلتهم وسط هذه المنطقة التي بثوا فيها الحقد والكراهية .

ومع اضمحلال الحضارة المصرية بدأ الفراغ ينجم على سيناء التي لم يعد يحميها أن جيش المصرى من الغزوات ، فضالت حازراً بين مصر وبين باقي الشرق ، وأثناء هذا الفراغ برزت قصة بنى إسرائيل عائمة بين التاريخ والأساطير . .

ولا جدال في أن خروج سيدنا موسى بقومه العبرانيين هرباً من بطش فرعون يعتبر خروجاً عظيماً في تاريخ البشرية ، فلقد خرج بدين لكن هذا الخروج لم يكن الخطوات الأولى لنبي ، لقد كانت هناك خطوات أخرى سبقتها ، ويرتبط اسم سيناء باسم سيدنا موسى عليه السلام ارتباطاً وثيقاً ، فلا يذكر اسم سيناء إلا ويتداعى إلى الذاكرة اسم الرسول الكريم ، ولا يذكر اسم سيدنا موسى إلا ويتداعى إلى الذاكرة أيضاً اسم سيناء ، قالها خرج بقومه . وفوق أرضها ناجى الله وتحدث إليه ، وفوق أرضها أيضاً خاضه قومه وتركوا عبادة الله الواحد وعبدوا العجل ، لذلك تعتبر سيناء واحدة من أهم الأماكن التي شهدت على مدار تاريخها أحداثاً دينية هامة ، فقد هاجر إليها سيدنا إبراهيم الخليل بقومه - كما سبق أن ذكرنا - حوالي عام ١٩٢١ ق . م ، ولذلك هاجر إلى مصر عبرها سيدنا يوسف الصديق وأخوته وأبوه سيدنا يعقوب عليه السلام .

ان خروج سيدنا موسى كان - تبعاً لما ورد في التوراة - حوالي سنة ١٤١٩ ق . م ، لأن سيناء شهدت كثيراً من الأحداث الدينية ، فقد ورد اسمها واسم « جبل سيناء » ٤١ مرة في الكتاب المقدس ، بينما ورد اسم « جبل سيناء » أو « جبل حوريب » ١٨ مرة و « جبل الله » ٦ مرات . . .

كذلك وردت قصة سيدنا موسى ومولده وتعبده ودعوة قومه إلى عبادة الله في الكتب المقدسة كلها : في التوراة والإنجيل .

ولد سيدنا موسى في مصر ، وحمل اسماً مصرياً هو « مو » ومعناها « ما » و « أوسيس » ومعناها انتشل أو التقط من الماء . . . ولقد انتشلت ابنة فرعون أو زوجته من النيل عند « المعادى » خلال فترة اضطهاد فرعون لبني إسرائيل الذي كان يقتل أطفالهم ويستحي نساءهم . . .
ربته ابنة فرعون ، فدرس جميع الفنون المصرية والعلمية والدينية

والفلسفية ، ويقول الكتاب المقدس في ذلك : فتهذب موسى بكل حكمة المصريين ، وشب وأصبح رجلاً ، ثم جاءت حادثة الشجار التي مات فيها رجل بيد موسى ، ففر من مصر إلى أرض « مدين » التي تقع في الشرق من شبه جزيرة سيناء ، وهناك تزوج من إحدى بناتها ، وأقام حوالي عشر سنوات إلى أن كلفه الله بالنبوة ، لقد حدثت الواقعة التي بدأت منها رحلته إلى الله ، ثم دعوته إلى الدين الجديد ، كان موسى يرعى شياة صهره ، فوصل إلى مشارف جبل سيناء ، وهناك تجلى الله له فقد رأى ناراً فقال لقومه ، كما ورد في الكريم « لعل أتيكم منها بقدس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودي ياموسى إني أنا ربك ، فأخضع نفسك لى بالوادى المقدس طوى » . .

وكما جاء في التوراة « أنا إله أبيك ، إله إبراهيم وإله اسحق ، وإله يعقوب ، فستر موسى وجهه وخاف أن ينظر إلى الله ، فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون ، وتخرج شعبى من بنى إسرائيل من مصر » .

وقد ذكر الباحثون أن عدد الخارجين من الرجال كان ٦٠٠ ألف عدا الأولاد ، وبدأت رحلتهم من مدينه « رعيميس » في شرق الدلتا عبر سيناء ، حتى وصلوا إلى أرض « كنعان » وهى فلسطين فى أربعين عاماً .

كانت نقطة البداية فى رحلة الخروج من شرق الدلتا هى محافظة الشرقية ، وكانت تعرف وقتها بأرض « جاسان » أو « جوشن » ، وكانت من أخصب أراضي مصر ، وتمتد من أبى زعبل إلى البحر الأحمر ، وهى كثيرة المراعى ، وقد أعطاه سيدنا يوسف عليه السلام — بعد أن أصبح وزيراً لفرعون مصر — لأبيه يعقوب وإخوته فسكنوا فيها هم وذريتهم من بعدهم حوالي ٢١٥ عاماً ، وبعد ذلك عبر موسى بقومه العبرانيين البحر الأحمر ، وكان يسمى بحر « سوف » ، وتمثل حادثة شق البحر على يد موسى معجزة الخروج ، يذكر التوراة : « إذ قال الله لموسى ارفع عصاك

ومد يدك على البحر وشقته ، فمد يده على البحر فأجرى الله البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة ، وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، فعبّر الشعب إلى سيناء . وكانت « مارة » هي أول موقع نزلوا فيه واسمها الآن « بحر المر » ، وفي هذا الموقع تضر بنو إسرائيل على سيدنا موسى ، فضرب موسى الأرض بعصاه فانفجر نبع ماء من المذاق ، فألقى فيه موسى بشجرة أراها له الله ، فصار الماء عذبا ، ورحل العبرانيون بعد عبورهم البحر من الشرقية إلى سيناء إلى مكان يسمى « إيليم » ومعناها « أشجار النخيل » ، وقد وجد فيها موسى ١٢ عينا للماء وسبعين شجرة نخيل ، ويرجع المؤرخون أن يكون مكان « إيليم » هو واحة « وادي غرنديل » حيث ينابيع الماء على بعد ٦٣ ميلا إلى الجنوب الشرقي من مدينة السويس ، ويرجحونها أيضا أن تكون هي نفسها « عيون موسى » الحالية ، حيث توجد ١٢ عينا للماء بالفعل حيث يطلق عليها البدو « واحة النخيل » .

استمر العبرانيون في رحلتهم إلى أن وصلوا إلى جبل سيناء الذي يقع جنوبي شبه الجزيرة ، وقد بلغوا الجبل بعد ثلاثة أشهر من خروجهم من مصر ، ومن « رافيديم » رأى موسى جبل سيناء ، و « رافيديم » هي « وادي سدر » الآن ، وفي جبل سيناء أعطى الله لموسى ولبنى إسرائيل الوصايا العشر ، وجميع شرائع الطقوس والعبادات وعاش بنو إسرائيل عاما تحت سفح الجبل ، حيث مارسوا حياتهم وفي نفس المكان صنعوا عجلا من الذهب وعبدوه ، فغضب الله عليهم .

غير أن شكوكا كثيرة لا تزال تحيط بخطوات سيدنا موسى فوق أرض سيناء ، وقد غرق كثير من الباحثين في شتى الاحتمالات والاستنتاجات لتحديد الطريق الحقيقي الذي سار فيه اليهود خلف موسى خارجين من مصر ، ومعظم الدراسات التي أجريت أما أنها كانت متحيزة

تماماً أو يصعب إثبات صحتها ، لكن أحداً لا يختلف على بداية الرحلة إلى نهايتها ، حيث توفي سيدنا موسى على المشارف الشمالية للبحر الميت في الأردن ، أما تفاصيل الرحلة ونقط التوقف كما ذكرتها التوراة ، فيصعب تمييزها بدقة على الخرائط الحالية وإن كان هناك طريقان يرجحهما المؤرخون :

• الطريق الجنوبي الذي يجتاز خليج السويس جنوباً إلى قلب سيناء . . .

• الطريق الشمالي ، ويمكن أن يكون العبرانيون قد عبروا فيه منطقة البردويل ، ومضوا نحو الشرق ، ثم جنوباً إلى جبل « الحلال » الذي يرى البعض أنه « جبل موسى » ويلتقي الطريقان - الشمالي والجنوبي - معا في منطقة « عين القديرات » ، ولكن أين على وجه التحديد عبر العبرانيون البحر ؟ ! ! وأين كانت واقعة شق البحر .

أول المواقع التي ترجمتها كتب الخروج يقع قرب السويس أمام عيون موسى ، ويرجح أن يكون موقع شق البحر مسطحاً مائلاً صغيراً في نقطة عند المضيق الذي يفصل البحرين المتوسط والأحمر .

وقيل : إنه ربما كان « البحيرات المرة » أو بحيرة المنزلة ، أو ربما بحيرة البردويل في الشمال ، وهذا الافتراض الأخير امتداد لنظرية الطريق الشمالي لخروج اليهود الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر المتوسط شمالاً سيناء ، ويرجح البعض أن سيدنا موسى لجأ إلى الطريق الشمالي قفادياً لنقط المراقبة المصرية لفرعون في سيناء على الطريق التقليدي في الجنوب . .

وكما اختلف المؤرخون في طريق موسى اختلفوا أيضاً في عدد العبرانيين الذين خرجوا معه ، فقد جاء في التوراة أنهم ٦٠٠ ألف رجل (١١ - مجلة دمشق)

وعائلاتهم بجانب قبيلة «ليقي»، وعدد كبير من الأتباع، وهو ما يرتفع بالرقم الى ٢٥ مليون، الا أن معظم المؤرخين يرون أن هذا الرقم مبالغ فيه، ويعتقدون أن كلمة «إيليف» — بعد الرقم ٦٠٠ — التي تترجم الى ألف، ربما كانت تعني أسرة، وهذا يعني أن الخروج كان يضم ٦٠٠ أسرة وأتباعهم وهذا يحدد رقم الخروج بأقل من ١٥ ألف شخص، وهو رقم يمكن قبوله...

وهناك نقطة لا تزال تشغل بال المؤرخين... من فرعون موسى؟

وطبعا لرواية التوراة، فقد وقع عذاب بني إسرائيل في عهد فرعون ووقع خروجهم في عهد فرعون آخر، ودلت القرائن على أن رمسيس الثاني هو فرعون الاضطهاد والعذاب، وشاع بين المؤرخين والباحثين أن «مرنبتاح» ابن رمسيس الثاني هو فرعون الخروج، لأنه تولى العرش بعد أبيه احمس ومن اللافت للنظر أن اليهود حاولوا صبغ أساطيرهم بصبغة الحقيقة، وأضافوا إلى نصوص الخروج بعض التفاصيل في محاولة لاقتناع القاريء بصحة مزاعمهم ومنذ قيام المسيحية قتلوا الكتب والبحوث العلمية عما سمي برحلة بني إسرائيل وتغريبهم بها مدة أربعين سنة.

وقد أثر هذا الحدث على تاريخ الانسانية أثرا عميقا، والحق أننا لا نملك — بجانب ما جاء في الكتب المقدسة — أي دليل قاطع يؤكد لنا وقوع كل الأحداث التي جاء ذكرها في التوراة، ولإلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع لا بد من العودة الى تاريخ تحرير التوراة وتطور تحرير النصوص الواردة بها، ومن الواضح أن هناك عمودا ثلاثة تعرض لها الكتاب المقدس، ولعبت فيه الأساطير اليهودية دورا هاما:

• عصر إبراهيم •

• عصر موسى •

• عصر السبي الى بابل ..

فاذا علمنا أن التوراة كتبت أثناء السبي الى بابل وجدفا أنه قد مر بين وقت تحرير الكتاب المقدس وعصر ابراهيم ما يزيد على ١٣٠٠ سنة !!

وإذا علمنا أيضا أن العصر الأول مشترك مع كل العناصر السامية .. لأنه مستقل بذاته ، وليس له أية صلة بموسى أو باليهود أو التوراة ، فرض علينا البحث فرضا أن هذا الجزء من التوراة مصدره محرف ..

وهذا يفسر ما جاء في القرآن من القول بأن ابراهيم لم يكن يهوديا ، بل كان آراميا وفادى بالوحدانية في الوقت الذي لم يكن هنا لك أثر لليهود .

وفي العصر الثاني جاء موسى وهو لا صلة له اطلاقا بعصر ابراهيم والذي يقرأ العهد القديم يرى أن هناك فجوة بين العهدين .. برغم محاولة الكتاب سداد هذه الفجوة .. والدور الموسوي ، مطبوع بطابع مصري مما حمل كثيرا من المفكرين أن يستنتجوا من النصوص أن موسى كان مصرياً ..

وأن الوصايا جاءت مكتوبة باللغة المصرية ، وبما يؤيد هذا الرأي تشابه « اعتراف الميت أمام الاله أو زيريس والوصايا العشر ... » .

وأقرب الى التصور أن هجرة موسى هي هجرة جماعة من الموحدين وجدت نفسها معرضة للاضطهاد بعد وفاة اخناتون ففضلت الهروب من البلاد والاتجاه نحو الشرق ... وهو لاء هم قوم موسى ، (١١) ، أولئك القوم كانوا يتكلمون المصرية ..

وفي العصر الثالث ، بدأ فلول اليهود في منقاهم ببابل يحررون «التوراة» ويبدوا واضحا جليا لقارىء التوراة أن الهدف الأول الذي رمى إليه المحررون هو تمجيد الزمرة اليهودية التي اصطفاه «الرب» فجعلها شعب الله المختار دون بقية الشعوب المجاورة !!

ولنتجاح المخطط كان لابد من ارجاع أصل اليهود الى التاريخ القديم
للبنطقة وزاد اليهود في التحريف ، فوضعوا على لسان إبراهيم ويعقوب
ما يثبت في نظرهم أحقيتهم في الاستيلاء على أرض الميعاد ..

ففي عهد البطالسة أراد اليهود التقرب الى الحكام بصيغ شريعتهم بألوان
من الحضارة و كان الغرض الاساسي هو التوفيق بين الثقافة الاغريقية
والتعاليم العبرية التي كانت الى ذلك الحين منبوذة لاحتقار شأن شعبها ، فنشر
اليهود دعايتهم في العالم الاغريقي : بأن كل ما أنتجته اليونان ما هو الا تحريف
للثقافة اليهودية القديمة !

حتى ان فلاسفة اليونان المشهورين ما هم الا تلاميذ العقائد العبرية !!
وكل ما هو حكيم في مؤلفات الاغريق مصدره التوراة ..

وادهى اجتهاد المؤرخين ان وجدت في مصر نسخة من التوراة سابقة
بكثير للنسخة التي نشرها السبعون حكيما من اليهود في عهد البطالسة ..
فاقتبس الاغريق من هذا الكتاب كل شئ قيمة فكرية وأضافوه الى
مؤلفاتهم .. ، (١٢) !! .

وبنفس هذا الأسلوب كان تحرير الكتاب اليهود للعهد القديم ، فقد
تعمدوا ابعاد الكنعانيين — وهم سكان فلسطين الأصليين — من
الكتلة السامية ..

ويلاحظ حتى يومنا هذا : أن اليهود يحاولون الانفراد بالانتساب
للسامية ، فأشاعوا في العالم — وهم لا تنقصهم وسائل الاعلام ومراكز
التأثير — كلمة « اللاسامية » للتعبير عن الاضطهاد الذي تعرضوا له ، وكان
الأقرب الى الحقيقة استعمال لفظ « الاليهودية » !! .

لقد لجأ اليهود منذ السبي البابلي الى تقديم كافة التسهيلات والمساعدات

الى كل القوى التي توارثت السيطرة على هذه المنطقة من الفرس الى
الاغريق الى الرومان الى الفرس ثانية ، ثم الى الأتراك فالانجليز وأخيرا
وفي هذه المرحلة الى كل من : « الامبرالية » الغربية والماركسية
الدولية !!

ولقد أشركوا الالههم في هذا الحقد وكأنه ربهم لا رب غيرهم ، فوضعوا
على لسان موسى غداة الخروج من صلبه من اليهود افتراض ملابس المصريات
وحلبهن والهرب بها !! .

والعجيب كل العجب أن تلك الخرافات قد غرست جذورها وانتقلت
الى المسيحية (١٣) ، وأعادت المسيحية الى الحياة ذكرى موسى ، من جديد
برزت شبه الجزيرة في التاريخ بضوء من النور والتقدیس ، وهنا يأتي سؤال :
لماذا أدمجت المسيحية تلك العقائد في تراثها الديني ؟

لقد كان هناك تيار قوى في القرون الأولى من المسيحية يطالب بقطع
العلاقة بين « العهد القديم » و « العهد الجديد » ، إلا أن هذا التيار لم ينتصر
بسبب بعض النصوص التي وردت في الانجيل ..

وازاء هذا الوضع بدأ الاجتهاد يلعب دورا كبيرا في تفسير بعض
النصوص التي وردت في التوراة تفسيرا يرمى الى اظهارها كرموز منبئة
بظهور المسيحية ، ولعبت المسيحية نفسها « بامرائيل الجديدة » وجعلت من
المسيحيين شعب الله المختار الجديد ، وأدمجت المسيحية في عقائدها الرسالة
الموسوية ، وبدأت تعيد الى الذكرى النبي الذي قاد شعب امرائيل الى
أرض الميعاد ..

ومن هنا تحولت سيناء — بعد انتصار المسيحية — الى مكان مقدس
يحج اليه المؤمنون ، و كانت أول حركة أثبتت أهميتها : هي حركة الرهبنة
في الصحراء .

وقد ساعد على هذه الحركة الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون في البداية على أيدي الاستعمار الروماني . . وكانت أهم الأماكن التي نزل بها الناسك هي : جبال موسى ووادي فيران ووادي الخمام شمال مدينة الطور ، ومالبتت شبه الجزيرة أن امتلأت بالربان والنساك . وبذت القديسة هيلانة أم الامبراطور قسطنطين (٣٢٣) للربان برجين في نفس المكان المقام عليه اليوم : دير سانت كاترين . . .

وكان منطقيا أن يسلك هؤلاء الزهاد الطريق الذي جاء في التوراة لمسيرة شعب بني إسرائيل .

وتجمع كثير من المسيحيين في منطقة الطور منذ القرن الثالث م ، ونجحت سيناء كموقع لحج المسيحيين بعد أن شجعت ذلك القديسة « هيلانة »

يقول المؤرخ البيزنطي بروكوب : « في المنطقة التي كانت تسمى بلاد العرب وتسمى الآن فلسطين الثالثة صحراء واسعة بلاماء ولا نبات ولا أشجار ويوجد جبل فاء لا يمكن تسلقه إلا بشق الأنفس ، وهو يقرب البحر الأحمر ويسمى « جبل سيناء » ، ويسكن هذا الجبل رهبان ونساك حياتهم كلها مخصصة للعمل والصوم والتفكير في الآخرة ، وهم يعيشون في عزلة تامة .

ولما رأى الامبراطور جستنيان أنه ليس باستطاعة أن يمد لهم بأية مساعدة — إذ أنهم يزهدون المال وخيرات الدنيا — قرر أن يبني لهم معبدا باسم السيدة العذراء ، وعلى سفح جبل بني لهم حصنا وخصص قوة من الجنود لحماية الحصن ، ومنع العرب من قديم الغزوات وتأمين الطريق إلى فلسطين ، وفي عام ٥٤٥ م ، تم بناء الحصن والمعبد والدير وتغير اسمه سنة ٦٠٠ م إلى دير سانت كاترين . .

سيناء في ظل الإسلام :

دخل العرب مصر عن طريق الفرما ، وهو الطريق التاريخي ، إذ هو أقدم الطرق بين مصر وسوريا ، فلما فتح عمرو بن العاص مصر سنة ١٨ هـ ٦٣٩ م ، كان الخليفة عمر بن الخطاب قد ألحقه بكتاب وهو في الطريق ، يقول فيه :

« أن أدر لك كتابي هذا وأنت لم تدخل مصر ، فأرجع عنها ، أما أن كنت دخلتها أو شيئاً من أرضها فأمض وأعلم أنني بمدك » .

فلما قرأ عمرو الكتاب ، سأل من حوله : هل نحن في أرض مصر أو الشام — وكانوا وقتها في العريش — فأجابوه : أننا في أرض مصر ، فقال : « هلموا بنا إذا قياماً بأمر الله وأمير المؤمنين » ، (١٤) .

وجاء في تهويم البلدان : « حد ديار مصر الشمالى بحر الروم من رفح إلى العريش ممتداً على الجفار إلى الفرما إلى اللطنية إلى دمياط إلى ساحل رشيد إلى الاسكندرية إلى ما بين الاسكندرين وبرقة » (١٥) .

لقد دفع الفتح الإسلامى بالعرب المسلمين إلى مصر من العريش ، ثم الفرما ثم بلبيس ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت سيناء كلها محاطة بجيوش المسلمين من كل الجهات ، فهاجر كثير من المسلمين إلى مصر — كما هاجروا إلى العراق والشام وبلاد فارس — وتخلف البعض في سيناء ، واندمج سكان سيناء مع العرب القادمين في نظامهم الجديد عن رضا واختيار واقتناع ، بدليل أنه لا توجد في سيناء أية حصون أو مواقع دفاعية ثبت أن أقامها العرب في شبه الجزيرة . .

بل ويميل المؤرخون إلى أنه قد وقع امتزاج بين القبائل العربية القادمة وسكان سيناء على اعتبار أنهم من جنس واحد ، ولم تكن هناك أدنى مقاومة

لجيوش المسلمين الظافرة حتى ولا من الهيئة الوحيدة المنظمة — في ذلك الوقت في سيناء — وهى دير سانت كاترين ، حيث لا يوجد في شبه الجزيرة من المسيحيين سوى رجال الدير والنساك ، أما اليهودية فلم يعتنقها أى بدوى سواء قبل الإسلام أو بعده .

وظلت سيناء بعد الفتح الإسلامى الطريق الآسالى الموصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط . . . وقلت قيمتها « الاستراتيجية » لأنها كانت محاطة من كل النواحي بدول اسلامية . . . كما ظلت الطريق التجارى الآسالى فضلا عن طريق الحج إلى مكة المكرمة .

* * *

ومنذ فجر التاريخ الإسلامى والعلاقات بين الحكام المسلمين وبين دير سانت كاترين تحكمها تلك الآية القرآنية الكريمة : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » (١٦)

ولذا نجد أن العرب المسلمين لم يدخلوا أى تغيير في إدارة الدير ، لكنهم أبقوا عليها ونشروا حمايتهم حول الدير من أعمال السطو التى كان يتعرض لها من قبل البدو وأحيانا ، ولم يكن هذا التقليد دينيا فقط . بل كان سياسيا أيضا ، فالدير في الطريق بين بلاد الشام ومصر وقأمينه كان من مصلحة العرب . . .

وقد سبق للرسول الكريم أن أرسل عددا من الكتب إلى حكام مصر وبيزنطة وبلاد فارس ، ومن الأرجح أن يكون الوفد الذى ذهب برسالة النبی محمد عليه السلام إلى المقوقس في مصر قد مر بالدير ، كما أنه من المحتمل أن يكون الرهبان قد أرسلوا وفدا للنبي عليه السلام يعالِم منه العهد تأميننا للطريق وصيانة للدير ، كذلك من المحتمل أيضا أن يكون النبي ﷺ قد أعطى هذا العهد وأوصى بالرهبان خيرا . . .

وفي الدير وثيقة مودعة به قيل أن عليا بن أبي طالب كتبها بأمر النبي عليه السلام في ٣ من المحرم سنة ٥٢ هـ .

إلا أن هذه الوثيقة ليست الأصل ، ولكن قيل أيضا أن الأصل استولى عليه السلطان سليم أو السلطان سليمان القانوني على حد قول البعض الآخر وأرسلها إلى استانبول ويلاحظ أن تلك النسخة لا تخلو من أخطاء وعبارات ركيكة مما يصعب تصديق صحتها .

والذي يهمنا في هذا الصدد ليس مدى صحة عباراتها ، بل اعتبار مضمونها تقليدا مقدسا في الإسلام لحكم العلاقات بين الدير وبين السلطة الحاكمة ، فالوثيقة ناطقة برغبة العرب في استمرار الدير قائما بوظيفته الأساسية التي حكمت علاقاته مع السلطة المسيحية منذ عهد جستنيان ..

وقد رأينا أن تثبت نص هذه الوثيقة في نهاية البحث ، وبالرغم من أننا نتحقق بالنسبة إلى صحتها من الناحية التاريخية ، لأنها ذات أثر عميق ، فقد احترمت على مر الأجيال وكأنها صحيحة !! لقد أفكر بعض الباحثين هذه الوثيقة وأفكر صدورها عن النبي عليه السلام ولهم في ذلك مبرراتهم المقبولة :

فأسلوبها يختلف عن الأسلوب الذي كان سائدا في عصر النبوة ، كما أن صياغة تراكيبها وألفاظها لم تكن مألوفة حينئذ ... يضاف إلى ذلك أن الوثيقة ذكر أنها مؤرخة في السنة الثمانية للهجرة مع أن الهجرة لم يؤرخ لها إلا بعد وفاة النبي بسبع سنين .

كذلك هناك من الشهود الذين وقعوا على الوثيقة يصعب علينا تصديق توقيعهم عليها ..

فأبو هريرة وأبو الدرداء مثلا لم يكونا قد اعتنقا الإسلام بعد في السنة الثمانية للهجرة .

إلا أنه بالرغم من قوة تلك الحجج فقد نفذت نصوصها كأنها صحيحة ، على أنه يمكن أن يقال : أنه ليس من المستحيل أن تكون تلك الوثيقة مشمولة في العهد الذي أعطاه النبي أهل آيلة .

ذكر ابن إسحاق : « فلما انتهى رسول الله (ﷺ) إلى تبوك أتاه تحية ابن رؤية صاحب آيلة فصالحه وأعطاه الجزية وأتاه أهل جرباء وأدرح فأعطوه الجزية وكتب لهم كتاباً فهو عندهم : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا آمنه (لعلها أمان) من الله ومحمد النبي ورسوله لتحية بن رؤية (ولعل الاسم تحريف ليوحنا بن رؤية) وأهل آيلة وأساقفتهم وسائرهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لم أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر ... » .

ومن الملاحظ أن هناك أوامر من العهد الفاطمي تؤكد على أحكام العقبة ضرورة ما جاء بالوثيقة بكل أمانة ، ومن بينها الأمر الصادر من الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٤٤ — ٥٢٦) بضرورة تنفيذ العهد القديمة الخاصة برهبان دير طور سيناء .

ولم يظهر حتى الآن أنه عشر على أي شيء يدل على صحة الوثيقة ، ولكن ذلك لا يمنع الترجيح بأن مثل هذا العهد قد يكون له أصل تاريخي لتمشيه من كل الجوانب مع التقليد الإسلامي منذ أقدم العصور ، فضلاً عن تمشيه مع النصوص الواردة في القرآن ومع تطبيقه واحترامه من جانب الحكام المسلمين..... إن بقاء الدير طوال العصور بالرغم من الغزوات والانقلابات التي مزقت الإسلام هو مثال أظنه فريداً في نوعه لروح التسامح التي سادت وحكمت العلاقات الإنسانية في هذا الطريق الذي يربط القارات ببعضها

ببعض ، كما يربط الأديان في تضامن يرجع بلا شك إلى وحدة التراث العقائدي . (١٧)

• • •

وقع الغزو الصليبي للمناطقة وأنشئت بعض الإمارات الصليبية في الشام وفلسطين ، وهنا برزت أهمية سيناء « الإستراتيجية » كحصن ضد الغزاة ، وتوطدت العلاقات بين حكام مصر وبين رجال الدير ، وفي عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي أنشئ بداخل الدير جامع ، وتم بناؤه فعلاً ، ويقال أن هذا الجامع بناه الفاطميون بدلاً عن الجامع الذي كان قد بنى بأمر سمر و بن العاص . . وبوجه عام لعبت سيناء دوراً حيوياً في الدفاع عن مصر أثناء الهجمات الصليبية . . واستمر ولاء رجال الدير للحكام المسلمين بالرغم من الشكل الديني الذي اتخذته الحروب الصليبية . . . ولم يشجع الرهبان أي حج من جانب الصليبيين إلى الدير ، ففي عام ١١١٦ م طلب « بودوان » الأول بعد إخضاعه للقدس من رهبان الدير السماح له بزيارته والتبرك به ، ولكن رئيس الدير رفض راجياً « بودوان » ألا يعبر الصور حتى لا يثير على الدير نقمة حكام مصر . . . وتحدث الروايات التاريخية عن اعتماد الفاطميين اعتماداً كلياً على ولاء رهبان الدير . . وهكذا كان هذا الحصن المسيحي يدافع عن مصر الإسلامية ضد غزو اتخذ من المسيحية شكلاً دينياً !!

وثبت للصليبيين صعوبة دخول مصر عن طريق سيناء ، مما حثهم على الإلتجاء إلى الغزو عن طريق البحر ، وكانت خطة الصليبيين من وراء تلك الحملات واضحة وهي أنه لا يمكن أن يستتب لهم الأمر في فلسطين دون إرضاخ مصر ، وقد عبر أحد قادتهم عن هذه السياسة قائلاً : « إن مفتاح القدس هو في مصر أي أن هزيمة مصر وحدها هي الوسيلة التي تؤمن لهم استمرار سيطرتهم على الشام وفلسطين . . . » ، ولا شك أن هذه

السياسة هي التي يطبقها اليهود في هذه المرحلة الخطيرة التي تمر بها المنطقة العربية .

وفي عام ١١١٦ م عبر « بودوان » سيناء واستولى على مدينة آيلة وشيد بها قلعة ، إلا أن عبد الله الجعفرى ومعه جماعة من بنى الجراح استولى عليها وأخذ منها ثلاثة آلاف دينار ثم حرقها (أى القلعة) .

وجاء صلاح الدين سنة ١١٧٠ م فاستولى على آيلة وعلى ما تبقى من القلعة وفي هذا الصدد ذكر القاضى الفاضل : « أن الملك الناصر صلاح الدين أنشأ المراكب وحملها على الجبال وسار بها من القاهرة لمحاربة قلعة آيلة ، فنزلها في ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، وأصلح المراكب في البحر وشحنها بالأسلحة والرجال واستطاع أن يفتح القلعة في ٢٠ من ربيع الآخر ... بعد أن قتل فيها من الفرنج وأمر ... وأسكن بها جماعة من ثقاقه ومنحهم ما يحتاجونه من سلاح ومال .. » .

استمر صلاح الدين — بعد أن حقق هذا النصر — في استرداد سائر المواقع المهددة في سيناء وحصنها ، وأعاد آيلة مركزاً لاستقبال الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة ، كما أعاد ترميم طريق العريش بعد تخريبه سنة ١١٦٥ م ، وأقام عدداً من القلاع في : عين سدر ووادى الراجة والعقبة ، وما زال جزء من قلعة « الجندى » التي أقامها بالقرب من عين سدر في حالة جيدة حتى هذه الأيام وعلى مدخل القلعة كتبت هذه العبارات : « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين الملك يوسف ... العادل الناصرى — في جمادى الآخرة سنة ٥٨٥ هـ أغسطس سنة ١١٨٧ م ، وفي الجهة الجنوبية من القلعة أقام صلاح الدين الأيوبي جامعين وصهر يماً للعباء .. وقد أثارت تلك القاعة إعجاب كل من مر بجانبها أو زارها نظراً لتوازن أحجامها وجمال هندستها وهى تعتبر صورة معبرة عن الفن العربى الذى اقتصر في القرون الوسطى .

ولما قامت دولة المماليك في مصر استطاعت القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في المنطقة وأمتد نفوذها إلى الشام وفلسطين ، وعادت سيناء محاطة من كل جانب بممتلكات إسلامية ...

وعادت أهميتها كمحاريق للحج والتجارة ، وقد ساعد على انتشار الأعمال التجارية الروح السائدة بعد نهاية عهد العقلية الصليبية ، إذ رُئي الإستغناء عن الحرب ، وبدأت العلاقات تتوطد بين مصر والبندقية واستمر التعاون قائماً طوال العصر المملوكي ، فأصبحت الإسكندرية ودمياط وبيروت والقاهرة ودمشق وحلب تستورد من أوروبا الأخشاب والمعادن والزيوت والجلود والأصواف والمنسوجات وغيرها ، كما كانت تصدر الشببة من حلب والعنبر من المحيط الهندي ، ولبنان جاوي والنشادر من صوماطرة والقرفة والقطن من الهند والتسليم من مصر ...

وكانت البندقية تتبادل مع مصر السفارات كما كان في الإسكندرية ودمياط ورشيد مقررأ ثابتاً لممثل (قناصل) البندقية في تلك المدن . ونظراً لأن أوروبا كانت تغطي فرق واردتها وصادراتها فقداً بالذهب ، فقد تدفقت على مصر والشام الخيرات الكثيرة .

كان تجار الهند لا يتعدون (عدن) حيث يبيعون منتجاتهم إلى تجار من العرب المصريين ، ومن عدن كانت تنقل البضائع على سفن مصرية عبر البحر الأحمر حتى تصل إلى القصير أو عيذاب ، ومن هناك إلى قوص ، ثم ترسل عبر النيل إلى موانئ الإسكندرية أو دمياط أو رشيد .

على أن هذا الطريق لم يدم طويلاً ، إذ لم يلبث أن أهمل وحلت (الطور) محل القصير ، كما حلت جدة محل عدن ... وكانت الحجاز وقتها داخلية في النفوذ المملوكي .

كانت قوافل السفن تصل إلى الطور مرتين في السنة : في سبتمبر

وفي مارس، مما أدى بسفن أوروبا أن ترتب سفر قوافلها البحرية إلى الموانئ المصرية وفقاً لبرنامج دخول القوافل البحرية إلى الموانئ المصرية وفقاً لبرنامج دخول القوافل البحرية إلى الطور ...

وفي عهد المماليك الشراكسة، ظهرت ميناء السويس كموقع تجاري وعسكري ويرجع ذلك إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح الذي أدى إلى سقوط الإمبراطورية ... إذ حاول المماليك محاربة البرتغال الذين حولوا طريق التجارة إلى المحيط الأطلسي وأنشأوا لهم مستعمرات في الأراضي الهندية ولكن تدهور الإقتصاد المصري والفوضى الداخلية الناتجة عن ذلك أدى إلى سقوط مصر في أيدي الأتراك.

وقد وجه السلطان الغوري اهتمامه إلى طريق البر عبر سيناء، فعمر مراكز الحج وأنشأ الجوامع والإستراحات وحفر منابيع للمياه في هذا الطريق.

فكانت القافلة تخرج من القاهرة لتجد أول محطة لها في «بركة الحاج»، «حدائق القبة الآن»، ثم قلعة «عجروود» غربي السويس ... ثم «النواحير» في بر سيناء، ثم «بئر القريض» ونقب «دبة البغلة» ونقب «العقبة» وقلعة «آيلة»، فإذا ما وصلت القافلة بر الحجاز على الشاطئ الشرقي، وجدت قلعة «المويلح» فبرج «ضياء الوجه» فقلعة ينبع وفي داخل بر الحجاز «رابع»

وقد وضع الملك الظاهر تغاليد أرسال المحمل إلى مكة مقراً بذلك مسؤولية مصر عن الأمان المقدسة .. وظل هذا الإحتفال قائماً حتى إلغاء الإحتفال بالمحمل سنة ١٩٥٢ م.

ولم يبق في نقب دبة البغلة من أثر سوى الكتابة الآتية منقوشة على صخرات : «بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله

ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك مراداً مستقيماً ،
وينصرك الله نصراً عزيزاً ... رسم بقطع هذا الجبل السمي « عراقيل البغلة »
ومهد طريق المسلمين للحجاج لبيت الله تعالى .. وعمار مكة المكرمة والمدينة
الشريفة والمناهل بعجروود ونخل وقطع الجبل وعقبة آيلة وعمار القلعة
والآبار والأزلم والموشحة ومغارب نبط الفساق وطرق الحاج الشريفة
مرلانا المقام الشريف والإمام الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين الملك
الأشرف أبو النصر قنصوة الغوري نصره الله نصراً عزيزاً ...

وفي وادي القريص على بعد ستين كيلو متراً من نخل بئر كانت محطة
للحجاج يبيتون فيها عند خروجهم من نخل وتعرف هذه البئر باسم بئر
أبو محمد نسبة إلى الشيخ أبي محمد الجوهري المدفون هناك ، وعلى درب الحج
المصري قرب مفرق الطريق إلى بئر التدرجم كبير من الحجارة عرف
برجم « الولي المفسود » .

ومن عادات البدو أن يرشقوا الرجم بالحجارة ويقولون : « أخا ياملعون
الوالدين ، و كانت مدينة نخل تسمى بطن نخل ، وذكرها أبو عبيد البكري ،
السلطان قنصوة الغوري على يد الأمير الكبير خير بك المعمار أحد المقدمين
وبها أنشأ سنة ٩١٥ هـ ، وقد وسع الخان في العصر التركي .

وإذا ما وصلت القافلة إلى منطقة العقبة الجبلية وجدت طريقاً مهده
ملوك مصر في الجبل المطل على مدينة العقبة ، وسمى الوادي الذي يصب
قرب مصب « طابا » بالوادي المصري .

والطريق الذي شيده السلاطين متعرج ومنحدر وبه خرائب بها بعض
الأحجار مكتوب عليها ما يثبت أن الذي أمر برسم الطريق السلطان قنصوة
الغوري ...

وفى العقبة نجد أيضاً آثار السلطان الغورى ومنها قلعة العقبة التى كتب على أحد جدرانها : « أمر بإنشائها السلطان قانصوة الغورى سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والملحدین محيى العدل فى العالمين » .

و كانت قافلة الحج التى تعبر شبه الجزيرة خاضعة لإدارة محكمة على رأسها أمير يدعى : أمير الحج وقوة عسكرية لمنع السلب والنهب وقد بدأ هذا التنظيم السلطان بيبرس .

و كان بعض الحجاج يجمعون بين الفريضة الدينية والأعمال التجارية مما دفع المماليك إلى أخضاع هؤلاء للتفتيش الجركى وتحصيل رسوم تصل إلى ١٠٪ . . .

و كان المماليك يدفعون لشرفاء مكة الأعطياء فى كل عام إعانة من مصر إلى الحجاز ، حتى أن السلطان قلاوون خصص لإيراد بعض القرى المصرية والسورية لصالح شريف مكة ، هذا بخلاف ما كان يوزعه أمير الحج على الشريف وعلى كبار رجال الحجاز من المنح ولا يخفى على الباحث أن الحجاز كان خاضعاً — كما سبق أن قلنا — لحكم المماليك . . .

وإذا علمنا أن عدد الحجيج الذين كانوا يعبرون سيناء يتراوح بين خمسين ألفاً وثلاثمائة ألف لكان هذا دليلاً على مقدار النشاط الذى كان يجرى على أرضها وعلى اهتمام السلاطين المماليك بشئونها . . .

كان العلم المصرى — ولونه أصفر — يرفع على فوق الحمل ، وكانت العلاقات بين الحجاز ومصر مبنية على : اضطرار شرفاء مكة إلى المعونة المصرية . . .

ومع ذلك كان فى استطاعتهم إثارة المتاعب أمام السيادة الخارجية والإبقاء على نوع من الإستقلال الذاتى . . .

إلا أن السلطان قلاوون استطاع أن يوقع مع شريف مكة معاهدة
تعهد فيها الأخير : بأن يعلق على الكعبة الكسوة الشرعية المرسلّة من مصر
فقط دون غيرها ، وألا يذكر في الخطبة إلا اسم السلطان المصري ، وأن
يكون العلم المصري في طليعة الأعلام الأخرى .

وقد ساعد على ذلك انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة ، وظلت
الأوضاع على ذلك حتى جاء السلطان سليم إلى مصر ونقل مقر الخلافة إلى
القسطنطينية ولقب نفسه بخليفة المسلمين .

المنصورة في سبتمبر ١٩٨٣

د . أحمد الحفناوى

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

ملحق

نص الوثيقة التي يجب التحفظ بالنسبة لصحتها من الناحية التاريخية ،
وفي نفس الوقت اعتبارها ذات أثر عميق لأنها احترمت على مر الأجيال
وكانها صحيحة :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه العون

نسخة سجل العهد كتبه محمد بن عبد الله

رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى كافة النصارى ،

هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيراً ونذيراً
مؤمناً على وديعة الله في خلقه ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ،
وكان الله عزيزاً حكيمًا . كتبه لأهل ملته ولجميع من ينتمى إلى دين النصرانية
من مشارق الأرض ومغاربها ، قريها وبعيدها ، فصيحها وعجمها ، معروفها
ومجهولها كتاباً جعله لهم عهداً ، فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره ،
وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثاً ، لميثاقه ناقضاً ، وبدينه مستهزياً ،
وللعنة مستوجباً . سلطاناً كان أم غيره من المسلمين المؤمنين .

وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو داء أو مغارة أو عمدان
أو سهل أو رمل أو ردة أو بيعة ، فأنا أكون من ورايهم ذاب عنهم من
كل عدة لها بنفسى وأعوانى وأهل ملتى وأتباعى لأنهم رعيتى وأهل ملتى
وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤمن التي يحمل أهل العهد في القيام بالخارج
إلا ما صابت به نفوسهم ، وليس عليهم جبر ولا إكراه على شيء من ذلك
ولا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا يهدم بيت من
بيوت كنائسهم وبيعهم ، ولا يدخل من مال كنائسهم في بناء مسجد ،
ولا في منازل المسلمين ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وخلف

رسوله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من بعد جزية ولا غرامة
وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا من بر وبحر في المشرق والمغرب والشمال
والجنوب، وهم في ذمتي وميثاقي وأمان من كل مكروه، وكذلك من ينفرد
بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعوه لا خراج
ولا عشر، ولا يشاطرون لكونه برسم أفواههم، ويعانوا عند إدراك
الغلة بإطلاق قدح واحد من كل أردب برسم أفواههم، ولا يلزموا بخروج
في حرب ولا قيام بجزية ولا من أصحاب الخراج وذوي الأموال والعقارات
والتجارات مما أكثر من اثنتي عشر درهم بالجمعة في كل عام، ولا يكلف
أحد منهم شططاً، ولا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، نخفض لهم جناح
الرحمة ونسكف عنهم أدب المكروه حيثما كانوا وحيثما خلوا، وإن صارت
النصرانية عند المسلمين فعلية يرضاهم وتمسكها من الصلاة في بيعها ولا تحيل
بينها وبين هدى دينها، ومن خالف عهد الله واعتمد بالصد من ذلك،
فقد عصي ميثاقه ورسوله، وبعاونوا على مرمة بيعهم وصوامعهم، ويكون
ذلك معونة لهم على دينهم دفعاً لهم بالعهد ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح،
بل المسلمون يذبون عنهم ولا يخالفون هذا العهد أبداً إلى حين تقوم الساعة
وتنقضي الدنيا.

وشهد بهذا العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ لجميع
النصارى والوفاء بجميع ما شرط لهم عليه إن أثبت اسمه وشهادته آخره.

أبو بكر بن أبي قحافة

علي بن أبي طالب

عثمان بن عفان

عمر بن الخطاب

أبو هريرة

أبو الدرداء

العباس بن عبد المطلب

عبد الله بن مسعود

الزبير بن العوام

فضيل بن عباس

سعد بن معاذ

طلحة بن عبد الله

سعد بن عباد	ثابت بن نفيس
زيد بن ثابت	حنيفة بن عبيدة
هاشم بن عبيدة	معظم بن قرشي
حارث بن ثابت	عبد العظيم بن حسن
عبد الله بن عمرو بن العاص	عمار بن يامين

« وكتب علي بن أبي طالب بخطه في مسجد النبي ﷺ بتاريخ الثالث من المحرم ثانياً في الهجرة وأودعت نسخته في خزانة سلطان وختم بخاتم النبي وهو مكتوب في جلد أديم طايفي فطوبى لمن عمل به وبشروطه ثم طوباه وهو عند الله من الراجين عفوره والسلام » .

« وفي الأصل المنقول منه هذه النسخة المتوجة بالنشان الشريف السلطاني ماصورته نقلت هذه النسخة من النسخة التي نقلت إلى النسخة المنقولة من النسخة السكاينة بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالأمر الشريف السلطاني لآزال نافذاً بعون المعين السبحاني ، ووضعت في أيدي طايفة الرهبان القاطنين بجبل طور سيناء لكون النسخة المنقولة من النسخة السكاينة بخط أمير المؤمنين باقية وليكون سنداً على ما يشهد به المراسيم السلطانية والمربعات الخنكارية والسجلات التي في أيدي الطايفة المذكورة » .

« تمت وسطرت هذه النسخة في ثاني رجب الموجب ٩٦٨ » .

• • •

المصادر والمراجع

- ١ - إبراهيم أمين ، سيناء المصرية ص ١٣
- ٢ - نعوم شقير ، تاريخ سيناء القديم والحديث ص ١٥
- ٣ - ابن خردادبة : (أبو القاسم عبيد الله ابن أحمد) ت حوالى ٣٠٠ هـ . « المسالك والممالك » مجلد ٦ ط لندن سنة ١٨٨٩ م .
- ابن حوقل (أبو القاسم محمد) ٣٦٧ هـ ، « كتاب صورة الأرض » لندن ١٩٣٨ م .
- المسعودى (مروج الذهب ومعادن الجوهر) ج ١ ص ١٨٨ ط ١٣٤٦ هـ .
- ابن إياس : (محمد بن أحمد) ٩٢٨ هـ ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور القاهرة ١٣١١ هـ .
- الإدريسى : (أبو عبد الله محمد) ت ٥٦٠ هـ ، « صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » . مختصر من كتاب « نزهة المشتاق » ليدن ١٨٦٦ م .
- ابن جبير ، الرحلة ط لندن .
- الدمشقى : شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى) ت ٧٢٧ هـ ، « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ط ١٩٢٣ م .
- ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى) ت ٦٢٦ هـ ، « معجم البلدان » ١٠ أجزاء ط ١٩٠٦ م .
- ٤ - إبراهيم أمين : المرجع السابق ص ١٨
- ٥ - أبو الفدا : (السلطان عماد الدين اسماعيل صاحب حماة) ت ٧٣٢ هـ ، « تقويم البلدان » باريس ١٨٤٠ م .

— ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨ هـ ، « العبر وديوان
المتبدأ والخبر » القاهرة ٢٨٤ هـ .

٦ — أنظر المصادر والمراجع رقم ٣

٧ — أشعيا النبي ١٢/٢٧

٨ — نعوم شقير : المرجع السابق : ص ٨٧

٩ — إبراهيم أمين : نفس المرجع ص ٤٤

١٠ — أنظر إبراهيم أمين : نفس المرجع ص ١٠٩ ، نقلا عن السكيس
مالون : اليهود في مصر .

١١ — أحمد سوسة : (دكتور) ، « العرب واليهود في التاريخ » ص ١٥٥

١٢ ، ١٣ إبراهيم أمين : نفس المرجع : ص ١٠٥

١٤ — ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن
عبد الحكم بن أعين القرشي المصري) ٢٥٧ هـ ، « فتح مصر وأخبارها »
ص ١٧٦ لندن ١٩٢٠ م .

١٥ — أبو الفدا : المرجع السابق .

١٦ — سورة المائدة آية رقم ٨٢

١٧ — إبراهيم أمين : نفس المرجع : ص ١٦٦

روضة الشيعين

فَرَحَةُ أَمَلِكْ

فرحة بزيارة السيد الأستاذ الدكتور محمد السعدي فرهود رئيس
الجامعة فرع الجامعة في دمنهور وبصحبته السيد الوزير محمد لبيب زمزم
محافظ البحيرة ، والأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الكردي نائب
رئيس الجامعة .

وأمل يراود كل من في هذا الفرع بأن يتبنى هؤلاء المسؤولون الأفاضل
بجهودهم البغاة إزالة كافة المعوقات لكي ينهض هذا الفرع ويحقق الهدف
المنشود من إنشائه .

وفي غمار هذه الفرحة وظلال هذا الأمل كانت هذه القصيدة .

الزهر فاح شذاه في بستانه

والطير قد غنى على أفنانه

وتعطرت أرض البحيرة وأزدهت

والبشر عم ديارها في آنه

لما خطا السعدي فرهود بها ومشى بها الكردي في إيمانه

سطعت شمس السعد بين ربوعها

وأنى إليها الفرح في ريعانه

يا موكب السعدي أنت سعادة

زفت إلينا الخير في إبابه

بشرى دمنهور شرفت بموكب أرواحنا قاقت إلى إقبانه

كنا نمنى النفس باليوم الذي

يأتي لنا السعدي في إخوانه

والبوم كرمنا بخير زيارة أهلا به قد حل في بستانه

.....

يارائد الحصن الذي نشر الهدى

ونمت صروح العلم في إيوانه

وتمزقت حجب الظلال بنوره

وتحطمت هام الندا بستانه

ها نحن فرع ثابت في روضكم

ذاك الذي فتن القلوب بيبانه

فرع له في كل عهد قصة

يحكي الزمان بها إلى ركبانه

أولاه أبناء البحيرة جهدهم

وحياه « زمزم » من كريم جنانه

ينذل العظيم من الجهود مهيا

سبل الحياة وحاطه بحنانه

حتى بدت أفئسانه مخضرة

والكل جاء يشم من ريحانه

يحمي عبيده حماه بعزة

ويسابقان الدهر في عمرانه

وشيوخه الأعلام بورك ذكرهم

نثروا ضياء العلم في ديوانه

لكنه يحتاج منكم نظرة

ويريدكم أن تمسكوا بعنانه

حتى يرى دوحا يسر رواءه تبدو القطوف تلوح في أغصانه
فالفرع ما لم يرتو من أصله أخذ الذبول يدب في بنيانه
والطفل ما لم فرعته في مهده عصف الفناء موليا بكيانه

.

يا رائد المعمور هذا فرعكم أمل البحيرة قام في شبابه
ترجوا بفوزهم دوام جهادها بأئمة الإسلام في ميدانه
كم أنجبت أرض البحيرة للورى من أزهر ساحر بيانه
منهم حكيم المسلمين محمد من حرر التفكير من أوثاقه
وكذاك شلتوت مفكر عصره وكذا بهى فيلسوف زمانه
وأئمة سار الزمان بذكرهم في ساحة المعمور من فرسانه
حملوا شريعة ربهم واستمسكوا بهداية الرحمن فى قرآنه
صانوا حمى الفصحى وأعلوا ذكرها

وتحمسوا للشعر قى أوزانه

واليوم جئتم بيننا كي تبعثوا مجدا عربقا حان وقت أذانه
أبناءؤكم يتظلمون لعهدكم فيرون أن الجسد فى دنوانه
يستبشرون بجهودكم ونشاطكم ويقدمون الشكر فى ألقانه
أما لهم فيكم عظام كسى يروا أمل البحيرة شب فى ريعانه
أعطاكم المولى جليل نعيمه وحباكم بالخير من رضوانه

.

شعر الأستاذ

الشحات محمد عبد الرحمن

المدرس المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية الكلية

أيها القارئ الكريم :

من حقل على كلية اللغة العربية بدمهور أن تعرف الظروف التي نشأت فيها وكذلك الرسالة التي أنشئت من أجلها وتعمل في سبيل أدائها وأن تسأل عن الخطوات التي قطعتها في ذلك الطريق ومبلغ النتائج التي حصلت عليها بعد سنوات قليلة من عمرها المديد إن شاء الله .

ومن واجب أسرة مجلتها أن تمدك بوسائل هذه المعرفة وأن تجيبك أو تمهد لك سبيل الإجابة على ما يمر في خلدك من خواطر أو ما يدور في نفسك من أسئلة .

أما الظروف التي نشأت فيها الكلية فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

فكر المخلصون من أبناء محافظة البحيرة وعلى رأسهم السيد المحافظ الأستاذ / محمد لبيب زمزم ، في خدمة دينهم ولغتهم وأمتهم بإنشاء فرع لتلك الجامعة العتيقة « جامعة الأزهر » ، في هذا الإقليم الكبير من أقاليم مصرنا العزيزة ، فقدموا اقتراحاً بهذا إلى الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر وإلى رئيس الجامعة ، ووعدوا بتيسير وتسهيل كل ما يقف أمام المشروع من عقبات ، وكانت موافقة مجلس الجامعة على هذا خير مشجع لمواصلة السير في هذا الطريق .

وقد تضمنت هذه الموافقة إنشاء كائتين إحداهما للغة العربية والثانية للشريعة الإسلامية والقانون ، وصدرت بذلك القرارات الوزارية المطلوبة ، وجاء دور التنفيذ فقدمت المحافظة مشكورة أحد مباني مدارسها الكبيرة ليستخدم مقراً مؤقتاً للكلية ، وشغلت كائتنا الناهضة الجناح الأيسر من

هذا المبني ، وعاونت المحافظة أيضاً بتقديم الآثاث اللازم وبعض المتطلبات الأخرى ، وأصدر رئيس الجامعة قراراً بتدب عميد الكلية والإعلان عن وظائف هيئة التدريس والوظائف المعاونة والعاملين ، واستمر الإعداد لإفتتاح الكلية عاماً كاملاً تم فيه تعيين عدد من أعضاء هيئة التدريس والمدرسين المساعدين والمعيدين ، وعدد من أعضاء الجهاز الإداري اللازم ، ومن العمال ، وكان ذلك خلال العام الجامعي ١٩٨١/١٩٨٢ م ، وفي أوائل العام الجامعي ١٩٨٢/١٩٨٣ م ، استقبلت الكلية طلاب السنة الأولى بها وكان عددهم يزيد عن الخمسمائة وقد أقيم حفل كبير بهذه المناسبة .

وهكذا خرجت إلى الوجود وليد جهود مضيئة هذه المنسارة اللغوية الإسلامية في شمال مصر وفي غربها ترسل أضواءها بإذن الله قريباً إلى غرب العالم الإسلامي كله إذا صدقت النيات واستمر العمل بإخلاص ووفاء .

وأما عن الرسالة التي أنشئت من أجلها فهي :

العمل في إطار الرسالة الكبرى للأزهر الشريف — على تعليم اللغة العربية ودراساتها ونشر الوعي اللغوي والديني في هذا الإقليم وفي كل أقاليم مصر والعالم العربي والإسلامي والسهر على إعداد ما يلزم من مدرسي اللغة العربية والدين الإسلامي ومن الباحثين فيهما وتكوين الدعاة اللغويين والإسلاميين وغيرهم من العاملين في الميادين الأدبية واللغوية والمشتغلين بفتون الكلام .

وأما عن الخطوات التي قطعتها في ذلك الطريق .. فإننا نحملك إلى ما سبق أن قلناه في هذه الكلية ، فهي أصدق سجل يربك هذا... ترى من خلاله حالة الكلية يوم نشأت فكرة وحالتها يوم برزت إلى الوجود ، ثم المراحل الصعبة والتجارب القاسية التي مرت بها حتى وصلت إلى وضعها الراهن . . وقد حرصت الكلية منذ نشأتها على :

١ — وضع أسس سليمة لبناء رابطة قوية بين الكلية والأساتذة لكي يتهيأ للجانبين ميدان من الحياة الجامعية الصحيحة ينهض كل واحد فيه بدوره فتبرز الماسكات وتستغل الإمكانيات .

٢ — عقد صلات من الألفة والإخاء بين أعضائها في داخل الكلية وبين جميع من يعينهم أمر النهوض باللغة العربية خارج الكلية لكي تتضافر الجهود وتتعاون الهمم في خدمة لغتنا العريقة وإحياء تراثنا المجيد والتعريف بما لها من مكانة مرموقة بين سائر اللغات .

ونأمل أن يتحقق بمجلة هذه الكلية — والعدد الأول هذا بين يديك عزيزي القارئ — جو من التبادل الثقافي بين أسرتهما وكل الهيئات الأدبية الأخرى .

ومع ذلك فالكلمة لا تزعم لنفسها الوصول إلى درجة الكمال وإنما هي لا تزال تنشده .

ومن الحق أن نسجل هنا أن من عوامل النجاح في النهوض بالكلمة الإخلاص والوفاء وفكران الذات ، وقد تجلّت هذه الصفات في أسرة الكلية من أعضاء هيئة التدريس والمدرسين المساعدين والمعيدون وجميع العاملين .

عزيزي القارئ :

ما تقدم فهو لك ولكن عليك الآن أن تقر هذا العدد في يقظة وعلى مهل وأن تكون نظرتك إليه شاملة ليكون حكمك عليه مخلصاً وفقدك له نقداً بناءً ، والسلام عليك ، وإلى اللقاء في العدد القادم بإذن الله ...

دكتور / عبد الله ربيع محمود دكتور / أحمد الحفناوي

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٨٤/٦١٩٦

